أحمد الرفاعى
مذكرات

فى المجلد الأول مناضلون يساريون أورد صفحات من مذكرات تحت الإعداد كتبها أحمد الرفاعى فى صورة لقطات متفرقة استعداداً لكتابتها فى صورتها النهائية.

لكنها بقيت كذلك.

وبعد صدور المجلد الأول اكتشفت مجموعة أخرى من المدونات تقدم لنا معلومات بالغة الأهمية وصورة شديدة الوضوح عن حقائق وموضوعات كانت خافية أو غير مدركة، ومن ثم كان من الضرورى العودة إلى أحمد الرفاعى لنستكمل عبر مدوناته رؤية لأحداث كان إيضاحها أمرا بالغ الأهمية.

فى سجن بنى سويف
الإضراب ثم الترحيل

فى سجن بنى سويف لم يكن المعتقلون جميعا يمثلون اتجاها واحدا، وإنما كانوا يمثلون اتجاهات مختلفة من طليعة العمال والحزب الشيوعى (الراية).. وبعض افراد ديمقراطيين ونقابيين، وكان العدد الأكبر من أعضاء حدتو.

لم يشترك فى الإضراب سوى مجموعة (حدتو) وبعض العناصر الديمقراطية.. وفشلت كل المحاولات لاقناع الآخرين بالاشتراك فى الإضراب، فلم يكن الجو صالحا لعزل نقطة مطالب الإضراب عن باقى الخلافات.. فمن حين لآخر كانت تنهمر علينا الاتهامات من كل جانب.. فاعضاء تنظيم (الراية) يصرون على أن حكومة ثورة ١٩٥٢ فاشية، وانها إنقلاب أمريكى وتمثل أعلى قمم الرأسمالية، وفى أى مناقشة تستهدف عزل مطالبنا كمعتقلين عن الخلافات ترتفع اصواتهم بالأناشيد الحماسية الاستفزازية، بسقوط الفاشية وعملاء السلطة.. ويقصدون بذلك اعضاء حدتو.. لقد كانوا فى معظمهم يمثلون عناصر صغيرة

السن من الطلبة لم تعركها السياسة بعد، أو من العناصر التى لم تعرف السياسة إلا عن طريق الكتب فقط.

وكان أعضاء طليعة العمال يخفون صفاتهم كشيوعيين، ويصرون على أنهم مجرد عناصر تقدمية ونقابية، ولم يكن عندهم وضوح سياسى فى تحليل السلطة، سوى أنهم يريدون اسقاطها، وكانوا يعلقون آمالا كبيرة على حزب الوفد فى هذه الفترة.

لقد كان الموقف دقيقا، إذ أننا كنا نلمح أن هجوم السلطة على الشيوعيين يشتد يوما بعد يوم، وأن هذا المعتقل انما يستهدف فى النهاية تحطيم معنوياتنا، ولم نكن نملك إلا أن نقاوم بسرعة، فإن توالى الهجوم مع الاستسلام يجعل المواجهة فى المستقبل شاقة أن لم تكن مستحيلة، وكنا نشعر أن زملائنا فى القاعدة من الممكن أن ينحرفوا إلى اقصى اليسار فى ظل هذه الظروف.

كانت مطالبنا تنحصر فيما يلى..

- السماح بقراءة الصحف.
- السماح بالزيارة.
- السماح بالمراسلة.
- نقل وجهة نظرنا إلى السلطة فى عودة الديمقراطية.
- رفض المفاوضات مع الانجليز كأسلوب، واستمرار الكفاح المسلح الذى أوقف حريق القاهرة.

ولكن باقى التنظيمات رفضت بالكامل الإضراب ومطالبه، واستمرت فى حملتها علينا مرددة.. اننا شاركنا فى جريمة الإنقلاب (يقصدون ثورة ٢٣ يوليو) ومدعية أن عبد الناصر كان عضوا فى تنظيم حدتو تحت اسم «موريس».. وبلغت المأساة ذروتها باتهامنا بأننا شاركنا فى اعدام «خميس» و«البقرى» مع أننا كنا التنظيم الوحيد الذى اثبت أن حريق كفر الدوار كان وراءه «حافظ عفيفى» وأنها مؤامرة رأسمالية تستهدف ضرب الحركة العمالية، ووزعنا العديد من المنشورات فى هذا الاتجاه.. ورتبنا اللقاء بين اللجنة المسئولة عن تكوين اتحاد العمال ومجلس قيادة الثورة فى هذا الوقت لتوضيح هذه المؤامرة.

لم ننجح فى اقناع الآخرين بالإضراب عن الطعام من أجل المطالبة بتحسين أوضاعنا، واقصى ما وصلنا إليه هو أن يقفوا على الحياد، دون محاولة اضعاف معنويات الزملاء.

كان عددنا فى ذلك المعتقل حوالى ١٥٠ من اعضاء حدتو وهم يمثلون الأغلبية، فأخذنا نعمل على إعداد الزملاء معنويا لخوض المعركة، وتوضيح مطالبنا وأسلوب التعامل مع الإدارة فى هذه الفترة، وارسلنا إلى خارج المعتقل العائلات والرفاق فى السجون الأخرى، وقسمنا الزملاء إلى دفعات، تدخل كل دفعة الإضراب فى تاريخ محدد لها.

وتولى الزملاء الفنانون اصدار مجلة فكاهية كاريكاتورية تصور حالة المعتقلين المضربين، وتنشر أخبارهم بطريقة فيها نوع من الفكاهة، هذا إلى جانب قصص قصيرة من مختلف أنحاء العالم عن معارك الشيوعيين فى المعتقلات.

وبعد أن تأكدنا من وصول أخبار استعدادنا للإضراب إلى الخارج، بدأنا نتعمد أن تكون مناقشتنا لهذا الموضوع بصورة علنية، وتقدمنا بمطالبنا بشكل واضح إلى الإدارة وإلى الجهات المختلفة، ولكن الإدارة أصمت آذانها عن كل شىء.. وكان كل ما يقوله مدير الليمان أن هذه المطالب ليست من سلطاته.

ودخلت الدفعة الأولى للإضراب واخلى لهم عنبر خاص. واستمروا فى الاضراب أربعة أيام، وفى اليوم الخامس دخلت دفعة ثانية، وبعد ثلاثة ايام دخلت دفعة ثالثة. ووصل عدد المضربين حوالى ستين وإلى اليوم العاشر لم تتحرك ادارة السجن أو يأتى مندوب الحكومة.. ولكن إدارة السجن كانت من حين إلى آخر تبلغنا نتائج اتصالها بالمباحث، وكانت تتلخص فى كلمة واحدة.. فليموتوا.. وفى اليوم السادس عشر كانت المفاجأة... اعداد ضخمة من قوات الأمن تتولى حراسة السجن تتقدم صارخة وهى تحمل الشوم وواضح من حركاتها أنها أعدت إعدادا كاملا لهذه المعركة.. فهى ترقص وفى ايديها الشوم، وتركض بسرعة جنونية فى اتجاه عنبر واحد الذى كان يضم حوالى ثلاثين من المضربين وتبدأ معركة رهيبة بين المضربين وقوات الأمن.. المعتقلون يحاولون أن يغلقوا الباب من الداخل والقوة المجنونة تدفع وتحطم وكأنها تتسابق إلى الداخل، تضرب يمينا وشمالا دون وعى أو تحديد لاتجاه الضربات.. صراع غير متكافئ سواء من الناحية العددية أو من الناحية الجسمانية.

ويقف «سعد الساعى» بطل مصر فى الملاكمة وأول ليسانس الاداب وقفة الملاكم الذى يتصور أنه قادر على الصراع.. ولكن شومة غاشمة تصرعه، ويعاود الوقوف فى تحدى الملاكم، ولكن الشوم يلقى به أرضا وتصل المأساة إلى حد مضحك.. ففى هذا الصراع يعز

على سعد بأن ينهزم .. ولا تكتمل لكماته حتى يتحول إلى قطعة من اللحم تتقاذفها الاقدام وتنوشها العصى بصورة محمومة. ويقود هذه المعركة مدير الليمان، ويصرخ كما لو كان جنرالا فى معركة حربية، ومن الغريب أنه كان يصطحب ابنه فى هذه المعركة كما لو كان يشهد على بطولة ابيه.

ووسط هذا الجو المحموم تنطلق صرخة مدوية. ونفاجأ بطفل يجرى بين الجنود متقدما ليحتضن احد المعتقلين، ويصرخ وهو يدفع بالجنود بعيدا عنه.. استاذ استاذ لا تضربوه.. ويتوقف الضرب للحظات. ويعم سكون بارد.. ويكتشف مدير السجن ابنه وهو يحتضن احد المعتقلين، فيرتجف الرجل وينظر إلى ابنه نظرة استنكار واستفسار. ثم ينقل بصره إلى المعتقل والدماء تنزف من رأسه وهو شبه عارى.. أنه استاذى «جميل عبد الشفيع».

ويرتبك المدير ويدفع بالمدرس والتلميذ بعيدا لتستمر المعركة.... يا للمهانة الإنسانية.. عندما يصفع الأب أمام ابنه. أو يضرب المدرس أمام تلميذه.. ويا لنذالة الأب الذى تتحجر عواطفه وهو يعرض نفسه على ابنه فى صورة السفاح.. لا أدرى لماذا تركزت عواطفى كلها فى هذه اللحظة فى جميل عبد الشفيع المدرس الرقيق المهذب الذى يشبه العصفورة، وفى هذا التلميذ الذى أثار فى نفسى أشياء كثيرة.

لقد أحسست فى هذه اللحظة أن الذى ضرب هم كل مدرسى مصر، تراثها، حضارتها وتاريخها، وأن صراخ هذا الطفل لم يكن إلا عويل مصر.. التى تعيش بلا حرية، بلا ديمقراطية، بلا كلمة شريفة وانطلقت الكلاب المسعورة تضرب فى كل مكان. لم تترك نظارة إلا وحطمتها، زجاجات الدواء دهستها، الكتب مزقتها.. إلى اين المسير يا بلدى؟ المريض يحرم من دواء، ضعيف النظر تحطم نظارته والكتب تثير الرعب والكراهية، انهم يريدوننا قطيعا أعمى ومجموعة من المرضى وجماعة من ذوى العقول الفارغة. فالديكتاتورية لا تستطيع أن تعيش إلا إذا جردت الشعب من كل مقوماته الفكرية والثقافية. وهكذا عاشت مصر فى تلك الفترة، مصر التى صارعت الاستعمار طويلا، مصر التى ما انخفض صوتها فى أشد الفترات ظلاما، مصر التى اعتادت إلا تعطى ثقتها لزعيم إلا بعد سنوات وسنوات من النضال.. مصر الآن عليها أن تصمت وتعطى ثقتها لضباط لم تعرفهم إلا من شهور.. عليها أن تصمت فالزعيم يتفاوض مع «هالكى» فى السفارة البريطانية. وكانت هذه المفاوضات محل انتقاد دائم من الشيوعيين. ويسرع «صلاح سالم» إلى الاذاعة ليؤكد أن

المفاوضات كانت ستنجح لولا هؤلاء الشيوعيين الملاعين. ومن هنا كانت عمليات التعذيب والاعتقال.

وينتهى يوم التعذيب الطويل، وتتراجع القوات التى قامت به، ويقف مأمور السجن متغطرسا صارخا.. من يريد الاستمرار فى الإضراب عن الطعام يتقدم خطوة إلى الإمام.. ويفاجأ الرجل بأن جميع المعتقلين المضربين عن الطعام لمدة ستة عشر يوما والمعرضين للتعذيب طوال يوم كامل.. يتحاملون على أنفسهم، ويتساندون على بعضهم البعض حاملين جرحاهم ويتقدمون إلى الإمام.. خطوة واحدة، ويصعق الرجل وتتراجع الإدارة والمباحث.. وتبدأ المساومات، وتتحقق بعض المطالب وينتهى الإضراب.

* * *

وإذ يأتى المساء، ويبدأ المعتقلون يعودون إلى زنازينهم الانفرادية. بعد فسحة العصر المسموح بها وقدرها نصف ساعة، يملأون فيها الجرادل التى سيشربون منها طوال الليل، وينظفون الجرادل الاخرى المعدة لتلبية نداء الطبيعة، ويستلمون فيها عشائهم، ولكنها لم تكن تخلو من دردشات وعلاقات انسانية وتبادل الذكريات الحلوة. والحقيقة ان ما كان يهمنى فى هذه الفسحة ان اتناول العشاء بمنتهى السرعة رغم انه كان يأتى فى الساعة الخامسة اى بعد موعد الغداء بساعتين فقط، ولكن الذى كان يعنينى فى هذا كله ان اجد من يشاركنى العشاء.. وكان دائما عشائى مع "فتحى خليل" ابن السويس وعاشقها.

لقد كان انسانا بكل معنى الكلمة، رغم السخرية القاتلة التى يمارسها حيال كل الزملاء حتى حيال نفسه، لقد كان يسرع بعشائه إلى حجرتى لنأكل سويا، فهو يعلم جيدا اننى لا استطيع الاكل بمفردى ولو أدى ذلك إلى أن أنام بدون عشاء أو أصبح بدون إفطار.. لا أستطيع ان آكل الا مع الاخرين. وليس كل الاخرين فلابد وان تكون لى معهم علاقات انسانية حسنة، وطالما عذبتنى هذه الازمة.

وما أن اغلقت الزنازين وتم التمام حتى عاد الشاويش "عبد الرازق"، ذلك السجان العجوز الماكر الداهية، لينادى على اسماء ثلاثة من المعتقلين...

أحمد الرفاعى... كمال عبد الحليم... عبد المنعم الغزالى.

ولم يكن متوقعا من الشاويش أن يعطى معلومات اكثر مما يبلغ إليه، ولو انه يعلم اشياء كثيرة، لخبرته الطويلة وثقة الادارة به.

وعبد الرازق شاويش فى مصلحة السجون منذ ثلاثين عاما. نحيل الجسم، بارز عظام الوجه، ذو سحنة تميل إلى الخضرة المشربة بالصفرة، متوسط القامة، لا يثور ولا يرتفع صوته، ولكنه ذو عين نافذة، قاسى الوجه، ينظر إلى الناس كما لو كان واحد منهم قد ظلمه فى رزقه أو حظه، فالجميع مجرمون مخطئون ما دام قادرا على أن يستذلهم، ومن لم يستطع ان يستذله لسبب أو لآخر فهو سيد مميز ودائما على حق.

لقد كانت حياة الشاويش عبد الرازق صورة معبرة عن معاناة الفلاح المصرى فى ظل الاستعمار والاقطاع.

ومن الغريب ان هذا الظلم لم يولد عنده اى رغبة فى الاحتجاج عليه أو العطف على المظلومين.. ولكنه خلق منه كائنا يعتقد أن الاصل فى الحياة أن تظلم أو تظلم. فاذا لم تكن قادرا على أن تظلم فليس أمامك إلا أن تعيش مظلوما... قانون وضعه لنفسه استباح به أن يكون قاسيا وفظا مع الجميع.

وقفنا نحن الثلاثة داخل العنبر، والزنازين مغلقة، والرفاق ينظرون من العيون السحرية إلينا، وبعضهم قفز إلى الشبابيك ليلقى علينا نظرة الوداع.. إذ أن مجلس قيادة الثورة قد أعلن عن تشكيل (محكمة الثورة) لمحاكمة السياسيين.. وهى محاكم خاصة بلا قانون، وكان قد سبق لها أن اصدرت حكما باعدام بعض الذين كانوا يتعاونون مع الانجليز، وكذلك حكما بالاعدام على أحد رؤساء الوزارات السابقين. وهو "ابراهيم باشا عبد الهادى"، رئيس الحزب السعدى حزب كبار الرأسماليين المتعاون مع السراى، كذلك حكما بالسجن المؤبد على "فؤاد باشا سراج الدين" وزير الداخلية. وكان صلاح سالم قد اعلن ان الشيوعيين سيحاكمون امام محكمة الثورة. اذن فنحن ذاهبون إلى محكمة الثورة.

النتيجة معروفة مقدما... الاعدام.

وارتفع من الداخل صوت الرفاق يرددون الاناشيد، فها هم رفاق لهم عاشوا معهم الحياة حلوها ومراها، هزائمها وانتصاراتها، عاشوا معهم معارك مصر... يرسلون إلى الاعدام.

واقبل السجانة لنقلنا من داخل العنبر لنرحل إلى القاهرة، وكلما ابتعدت خطوة عن العنبر، كانت كلمات الاناشيد تلاحقنا..

بين صخر وحديد وأعاصير وسل

وقيود وسدود قتلوا منا بطل

نشيد حزين، فيه قوة وإصرار، فى كل كلمة منه أحس رائحة الدم، ومعنى التطابق بين الموقف السياسى ومواجهة الموقف، ان الانسان الكامل هو الذى تتطابق عواطفه وآرائه مع موقفه السياسى. كلمة صاغها الرفيق " كمال عبد الحليم" عندما مات أحد المناضلين السودانيين فى السجون المصرية، وهو طالب الهندسة "صلاح بشرى".

ومع النشيد الحزين والليل الذى يزحف فى عتمة داكنة على سجن بنى سويف، وجدنا مئات العساكر مصطفين على جوانب الطريق ابتداء من السجن حتى محطة بنى سويف. وفى داخل المحطة كانت هناك قوات ضخمة من رجال الامن موزعة على ارصفة المحطة شاهرة السلاح تحت قيادة مدير المديرية.

ان النتيجة واضحة، وواضح أن الحكم اعد سلفا. والا لماذا المظاهرة الضخمة المكونة من أكثر من الف جندى لحراسة ثلاثة من المعتقلين المكبلين بالاغلال.

ولا أقول صعدنا إلى القطار، وانما حملونا حملا إلى احدى عربات الدرجة الاولى. ومعنا عدد ضخم من الضباط والجنود للحراسة، وبدت فى نظرات الضابط المكلف بحراستى صورة من صور الرثاء، فهو يحاول أن ينظر إلىّ، ولكن نظراته تهرب كلما ابصر الحديد على معصمى. وكأنه هو المسئول عن ذلك، أو انه يتأفف من مشاركتهم فى عملية قذرة. ومن حين إلى آخر كان يسألنى.. هل يؤلمك الحديد.. ولكن لا أدرى لماذا لم أكن ارد عليه، فلقد كانت افكارى سارحة فيما ابعد من نفسى..

إلى أين المصير..؟.. وما هى القضية؟

وفى خضم هذه الافكار التى تنازعنى، وجدت ضابط برتبة رائد يستأذن فى الدخول إلى الصالون، وجلس بجوارى، وبدأ فى عينيه انه يريد الحديث معى... ولكن الضابط المكلف بحراستى أشار اليه اننى ممتنع عن الحديث. ويبدو انهم كانوا زملاء دراسة فى كلية البوليس، فأستأذن الضابط المكلف بالحراسة للذهاب إلى دورة المياه، مطمئنا إلى وجود العساكر وزميله الذى استأذن فى الدخول.. وهنا نادنى الضابط باسمى التنظيمى.. ولكنى لم ارد. فالعقل الباطن مع التدريب المستمر يعيش فى يقظة دائمة, حتى أمام اسرع المفاجأت... وهى عملية مجهدة .. ولكن لابد منها..

ولما لم يسمع جوابا اخذ يلح على ان استمع اليه. فاخبرنى انه زميلى فى التنظيم وان هناك مجموعة من الرفاق قد قبض عليهم. وهم فى السجن الحربى.. حيث سنذهب هناك فى هذه الليلة.. وان هناك بعض اعترافات عليكم.. واخذ يعدد اسماء الزملاء المقبوض عليهم..

يوسف حلمى.. زكى مراد .. دكتور شريف حتاتة.. محمد شطا.. حليم طوسون.. أبو بكر سيف النصر.. ابراهيم حسين.. ابراهيم يونس.. خليل قاسم.. البير اربيه.. الضابط مصطفى كمال صدقى.. سيد البكار.. وآخرون..

لقد احسست بخنجر بين اعماقى. اذن لقد قبض على اغلبية المتبقين من اللجنة المركزية مع قيادة الجبهة المكونة من الوفديين وبعض عناصر الحزب الاشتراكى.

فألتفت اليه وقلت له.. متشكر هذه الاسماء لا أعرفها، ولا ادرى ماذا تقصد؟ لقد كاد الرجل ان يجن من اصرارى. ولكنى كنت أحس أنه أعطانى الكثير. ولا داعى للاستمرار فى المناقشة أكثر من ذلك مادمت لا اعرفه.. وفى المحطة التالية نزل بعد ان القى على نظرة حب ووداع، لقد كان مأمور مركز شرطة "بوش" محافظة بنى سويف فى ذلك الوقت، والذى اصبح بعد ذلك "يوسف صبرى" الصحفى فى روزاليوسف.

لا ادرى لماذا تداعت إلى ذهنى خواطر كثيرة متلاحقة، وتذكرت ابنى الذى مات من ايام، وسعادة الضابط وتشفيه وهو يبلغنى الخبر وكأنه حقق انتصارا كبيرا.. ان المصائب تترابط مع بعضها. فالقبض على اى رفيق فى مثل هذه الظروف يمثل نعى عزيز على، وخاصة اذا كانوا رفاقا لهم تاريخهم واخلاصهم ونضالهم.

زكى مراد صديق العمر. شريف حتاتة القريب إلى قلبى والذى أفهم نظراته دون حديث.. محمد شطا القائد العمالى.. حليم الهادئ الرزين.. يوسف حلمى سكرتير انصار السلام.. بكر سيف النصر ابن البرجوازية الذى لفظها ورفضها.. ابراهيم حسين صديق الدراسة .. مصطفى صدقى الضابط الذى كان ملء السمع والبصر فى وقت من الاوقات ، منافس الملك فاروق فى غرامياته.. البير اربيه.. عبد اللطيف جمال الدين.. فؤاد منير.. عثمان غالب.. سعد كامل.. الشاعر خليل قاسم.. عبد المنعم الغزالى.. احمد طه.

اذن فهى قضية الجبهة الوطنية.. لقد احسست بثقل التهمة التى ستلقى على. فلقد كنت ممثلا للشيوعيين فى هذه الجبهة. انا الذى وضعت برنامجها، وكتبت اول بيان لها بخطى.

وكان الذى يشغلنى فى هذه اللحظة.. من هم الاخرون الذين لم يذكرهم الرائد..؟ على كل حال فما باليد حيلة. ومادامت قد وقعت الواقعة فلامتع عينى بجمال الحقول.. فلعلها آخر مرة اراها.. من يدرى؟

وانطلقت أغنى بينى وبين نفسى لحنا ريفيا لا علاقة له بالموضوع، انما فيه ذكريات القرية والطفولة.. يا بهية وخبرينى على اللى قتل ياسين.. وبدأت اضحك مع الضابط المكلف بالحراسة.. وكم كان سعيدا ولطيفا... واشعل لى سيجارة، واخذ يحدثنى عن شقيقه الذى سبق له وان اعتقل. وبدا من كلامه انه يريد ان يخفف عن نفسه عبء هذه المهمة، والا انظر اليه نظرة فيها احتقار وازدراء . من خلال الحديث عرفت ان هذا الضابط شقيق لزميل لى فى المدرسة الثانوية اسمه "نشأت" ، وكان من حين إلى آخر يلمح عن شقيقه هذا الذى بدأ حياته ثوريا وانتهى به الامر إلى يأس قاتل، وكأنه كان يقول.. ليته استمر معكم، حتى ولو لقى نفس مصيركم.

وما كاد القطار يتوقف فى محطة القاهرة، حتى اسرعت قوات لا حصر لها، واحاطتنا من كل جانب نحن الثلاثة المعتقلين. كمال عبد الحليم.. عبد المنعم الغزالى، وأنا، وكل من رجال المباحث يبالغ فى استخدام العنف ورفع الصوت وكأنه يشهد الجميع على اخلاصه وتفانيه فى تنفيذ واجبه.

ومضى رتل السيارات المخصص لنقلنا تتقدمه صفارات مرعبة، وتحيط به سيارات جيب من كل مكان حتى وصلنا إلى مبنى فى الصحراء... انه السجن الحربى العتيد.

السجن الحربى

نزلنا أو أنزلونا إلى ادارة السجن الذى انشأه الانجليز لتعذيب العساكر المصريين حتى يصلوا إلى مرحلة يتمنون فيها الانتحار.

وبدأ تفتيش أمتعتنا الفقيرة البائسة.. ملابس داخلية، بيجامات، بعض القصص العربية والاجنبية. ويتم التفتيش بفظاظة. ويرتفع صوت أحد الضباط.. خونة يقرأون كتب انجليزية.. ويتم تحريز هذه الكتب وكأنها ألغام خطرة. ونعاد إلى السجن. وألمح قرب البوابة بعض الاسماء التى ذكرها يوسف صبرى.

ويدفعوننى إلى زنزانة ضيقة مظلمة لا أتبين شيئا فيها. وبعد دقائق تمر مجموعة من الجنود تدفع إلى رغيف ومعه بعض الملح.. العشاء.. العشاء.

الحجرة مظلمة لا اعرف محتوياتها او ابعادها.. اقبض على الرغيف بيد من حديد، واتلمس طريقى فى الظلام حتى اهتدى إلى الجدار. وابدأ فى تناول العشاء بروح لا تشعر بالاطمئنان. ينحصر كل تفكيرى فى شىء واحد، لا ثانى له. لابد وان اعيش. لابد ان تمر المحنة.. ان الاصرار هو ابن الارادة الواعية بأبعاد المأساة.. ومن أجل ذلك لابد وان أتعود على الحياة الجديدة، وان أتأقلم معها.. فقد كان بعض اعضاء مجلس قيادة الثورة يدلى بتصريحات عن العنف والبطش وعن الهجوم على الحياة الديمقراطية. وكأن تصوراتهم عن الشيوعية كما قال عبد الناصر فى ذلك الوقت.. انها افعى ذات مائة رأس تتكور وتتكور ثم لا تلبث ان تنقض عليك من جديد.

انهم يتصورون انفسهم فوق الجماهير التى عليها أن تثق بهم.. وطنيون حقا ولكن يرفضون الديمقراطية يضعون الوطنية والتحرر فى تعارض مع حرية الجماهير. يضربون كل الاتجاهات كأن مصر لم تولد الا فى ٢٣ يوليو، لعلهم شباب برئ ولكن ما أخطرهم على مسيرة الشعب.

وانطلق فى تفكيرى حتى يصل إلى صوت أحد الجنود وهو يغنى الصعيدية.. ان مال عليك الزمن. ميّل على ذراعك.. انتبه إلى الرغيف الذى فى يدى، فاقضم نصفه واحتفظ بالنصف الباقى حتى الصباح، علهم لا يقدمون غيره.

وما أن وضعت رأسى حتى غلبنى النوم، واستيقظت فى الصباح الباكر لاكتشف مكونات الحجرة.. انها زنزانة صغيرة لا تختلف كثيرا عن زنازين السجون التى سبق ان سكنتها منذ نهاية الاربعينيات وفى اوائل الخمسينيات.. أتطلع إلى الجدران وأحاول ان اقرأ الكتابات عليها، فأنا أعرف ان المسجون يحاول دوما أن يترك أثرا يذكر الآخرين به.

كتابات كثيرة، ولكن استوقف نظرى كتابة على باب الزنزانة الحديدية المكتوبة بمسمار..

محمود صبرى.. الشهير بصبرى كينج
"ارفع يدك إلى السماء واقرأ لى الفاتحة"

وكنت قد عرفت من زملائى المعتقلين فى سجن اسيوط والذين رحلوا الينا إلى سجن بنى سويف ان محمود صبرى الشهير بصبرى كينج قد اعتقل مع عدد من المصريين المتعاونين مع القوات البريطانية بتهمة التجسس. وكنت قد قرأت فى الصحف، انهم نفذوا فيه حكم الاعدام. ولكن الذى اثار فى نفسى الالم اننى الشيوعى أعامل معاملة صبرى كينج، وأسجن فى نفس الزنزانة التى مر بها من قبل. لقد أحسست برأسى يلتهب.

كنت أسمع عن صبرى كينج منذ اشتركت فى معارك الفدائيين فى عام ٥١ التى انتهت فى ٢٦ يناير ٥٢ بحريق القاهرة.

اليس غريبا ان اقدم إلى نفس المحكمة التى تحاكم صبرى كينج.

اليس غريبا ان اقرأ وداعه للحياة.. وقد تواجهنا انا وهو فى معركة مسلحة.. انا كفدائى وهو كعميل متعاون مع الانجليز.. وتذكرت قول ابى العلاء..

رب لحد صار لحدا مرارا ساخرا من تعانق الاضداد

ايقنت فى هذه اللحظة ان رجال ٢٣ يوليو، رغم العمل الذى أنجزوه، لا يعرفون طريقهم.. انهم يتصورون الخيانة فى بعض العناصر التى قبضوا عليها فى منطقة القناة من العمال،الفقراء. "صبرى كينج" "حسن قدرى" "سعد الحلاق"، ونسوا أن الخيانة تعيش معهم فى القاهرة وفى القصور وفى أجهزة الحكومة.

عشت فى هذه التأملات لفترة لا أدرى طالت أم قصرت حتى فتحت الزنزانة، واطل منها ثلاثة جنود وضابط اشاروا إلى ان ارتدى ملابسى.

وما كدت امشى خارج الزنزانة لبضع عشرات من الامتار حتى ادخلت إلى حجرة يجلس فيها وكيل المدعى العام "على نور الدين" كنت أعرفه منذ زمن طويل كوكيل لنيابة امن الدولة. وما كدت اجلس حتى بدأ التحقيق معى. وبعد السؤال عن الاسم ومختلف البيانات. بدأ السؤال عن التهمة الموجهة الى.. انت متهم بأنك عضو فى المكتب السياسى لتنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حدتو)، وانك عن طريقه اسهمت فى انشاء جبهة من الاحزاب المنحلة "حزب الوفد" "الحزب الاشتراكى" بهدف اسقاط نظام الحكم بالقوة المسلحة.

لم تكن هذه هى المرة الاولى التى يوجه إلى فيها الاتهام بالاشتراك فى تنظيم شيوعى، ولكن الجديد فى هذه التهمة، هو إنشاء جبهة من الاحزاب السياسية المنحلة.

وكان ردى على السيد وكيل المدعى العام، هو النفى، وأننى لا اعرف ما هى اهداف هذه الجبهة التى تكلم عنها، فأخذ سيادته فى شرحها من ورقة امامه..

إطلاق الحريات الديمقراطية.

حق الشعب فى تكوين احزابه الوطنية.

طرد الاستعمار عن طريق الكفاح المسلح.

عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى.

اسقاط المشاريع الامريكية.

اعادة محاكمة خميس والبقرى.

وبعد ان شرح السيد وكيل المدعى العام هذه البنود، اجبته اننى لا ارى فى هذه البنود ما يدعو إلى التحريم، فاى نظام وطنى لا يعارض هذه المطالب.. وهنا استدعى السيد وكيل المدعى العام احد زملائى المتهمين وهو "ابراهيم حسين"، واجهنى به مستفسرا عن مدى معرفتى به، وكان مفاجأة له اننى لم انكر معرفتى به، بل كدت له انه صديق لى.. وهنا ظهرت البهجة على وجه المدعى العام، الذى اكد ان ابراهيم حسين ضبط فى منزله مطبعة، هو وحليم طوسون وانه وجد ايصال باسمى بشراء نجفة فى هذا المنزل، مما يؤكد ان لى علاقة بهذه المطبعة، التى دأبت على طبع منشورات بالديمقراطية. كان ردى الوحيد ان ابراهيم صديق، وكان يسكن بحى المنيل قبل ذلك وليس فى الهرم كما تقول. واذا وجدت اوراق تخصنى بمنزله فهذا أمر لا يستغرب بين صديق وصديقه.

تفرست فى وجه ابراهيم، اكتشفت اللطمات التى على وجهه ومدى التعاسة التى يعيشها وخاصة انهم قبضوا عليه مع اخيه الطفل الذى قدم من قرية المطرية ليقدم أوراقه إلى الجامعة.

لقد كان ابراهيم صديقا قديما.. وهو عضو فى حزب الوفد المصرى.

وبعد دقائق استقدموا شاهدا اخرا. اكد انه يعرفنى واننى كاتب البيان الاول للجبهة، واننى كنت مندوب حدتو مع حزب الوفد والحزب الاشتراكى.. قال هذا وانصرف. كدت

ابكى فى نفسى للوضع الذى وصل اليه. خاصة حينما عرفت انهم اخذوه إلى المشنقة وهددوه بالشنق.

انتهى التحقيق وذهبت إلى الزنزانة الانفرادية.. لا علاقة مع انسان.. لا ارى احد.. اللهم الا وجوه الضباط الذين يهاجمون الزنزانة ويفتشونها ويتأكدون من ان الحديد الذى يقيد قدماى ويداى مربوط جيدا، وكأنما يعتقدون اننى أستطيع أن أحطمه!!!

.....

تهديد بالاعدام: –

وفى مساء احد الايام تقدم ضابط ليتلو على من ورقة انه تقرر اعدامى فى صبيحة اليوم التالى انا، و"زكى مراد"، و"شريف حتاته"، و"محمد شطا".

ثم يصيح باعلى صوته: علم؟

فاجبته: علم.

فيقول: قل علم يافندم.

فقلت: علم يافندم.

ثم يعطينى ورقة وقلم لأكتب ما أريد من وصايا. ولكننى أرفض استلام الورقة والقلم.. حيث لا يوجد شىء عندى ما أوصى به ولا يوجد عندى ما اقوله، ولكن التاريخ نفسه هو الذى سيقول.

هل تريد شيئا؟

لا فقط اريد طعام العشاء.

ويخرج الضابط ناعتا اياى باحط الالفاظ.. حيوان.. بليد الحس فاجبته فى فى هدوء: لماذا انت غاضب؟

فيقول : انت عديم الاحساس.

فاجبته: انا الذى ساموت وليس انت. فلا تغضب.

واقضى الليل أفكر فى احتمالات الموت. وتشغلنى فكرة غريبة مؤداها ان الذين يسرعون فى قتلى لا أكن لهم اى شعور بالكراهية، وانما هم جزء من معسكر الشعب.. وفى نفس الوقت يمتد فكرى إلى ما بعد الموت. ماذا ستقول الاجيال القادمة.. لماذا قتلت؟ سيضيع دمى هدرا لان الذين قتلونى كانوا وطنيين ايضا؟

انها تراجيديا أعيشها ليس بمفردى، ولكن بالقطع ايضا يعيشها هؤلاء الضباط. انهم بلا شك ضد الاستعمار، لكنهم يحملون ايديولوجيا فيها الكثير من تأثيرات الفكر الاستعمارى والرجعى من كراهية شديدة لأى بعد اجتماعى لمعركة التحرر من الاستعمار. ان المعركة فى ذهنهم بين شعب بأجمعه. منسجم فى كل شىء.. لا ظالم ولا مظلوم، لا صغير ولا كبير.. الاقطاعى مجرد ظالم لفلاح، الرأسمالى مجرد ظالم للعامل.. ولكن امعان الفكر فى هذا الرأسمالى او الاقطاعى.. وان كلا منهم يمثل طبقة شىء غائب عنهم تماما.. لا يستطيعون ان يمتدوا بافكارهم الى مدى عمق التناقض بين مصالح الفلاح والعامل والاستعمار، مرورا بالاقطاع والرأسمالية.. المعركة فى مفهومهم محدودة المعالم. انهم وحدهم هم الملائكة الابرياء المجردون عن المصالح.. وتنطلق كلمات ساذجة مثل قول "جمال سالم" للبعض.. والله لو شنقتنى الثورة بهذه الكرافتة لما ندمت.

طبعا لن تشنقه الثورة.. ولكن هل فكر ان الثورة تشنق غيره....؟

واذا شنقت غيره، فلماذا تشنقه..؟ وفى اى معسكر يقف هذا المشنوق.

أمتد تفكيرى بهذا الاسلوب حتى الصباح. حتى افقت على صوت الضابط نفسه .. التنفيذ اتأجل حتى العصر.. هل توجد لديك طلبات...؟

أحسست فى نفسى بمدى سذاجته وطفولته حتى الكلمة كنت ابخل عليه بها.

أعاد السؤال مرة واثنين وثلاثة.. واخيرا قلت له بنوع من القرف..

أريد الفطور فقط والخلوة إلى نفسى.

سب ولعن وانصرف..

امتدت هذه المهزلة لمدة ايام عديدة، ونحن فى نفس الوقت نسمع عن محاكمة "سراج الدين" سكرتير حزب الوفد المصرى وهو واقف صامد فى محنته حتى صدر الحكم ضده بالحكم المؤبد على ما اذكر، وكان ذلك بعد ان اصدرت المحكمة حكمها بالاعدام على "ابراهيم عبد الهادى" رئيس الوزراء السابق والذى سبق ان حكم عليه الانجليز بالاعدام فى ثورة ١٩١٩.

كان الحبس انفراديا بشكل كامل ومطلق .. كل مسجون يسمح له فقط بالخروج خمس دقائق او عشر دقائق يذهب إلى دورة المياه، ويأخذ تموينه من المياه ويفرغ البول ويغسل ملابسه وفى نفس الوقت يلازمك السجان حتى داخل المرحاض، ولكن يبدو ان هذه الشدة

بدت تضغط ايضا على اعصاب الجنود السجانين، الذين بدأت قبضاتهم تتراخى، وبدأت مدة الفسحة تطول، وبدأنا نتبادل بعض الكلمات مع السجانين. عرفت من هذه المحادثات البسيطة حجرة شريف حتاتة، وزنزانة ابراهيم حسين وزنزانة زكى مراد.

ومن خلال المراحيض عرفت عن طريق بعض الكتابات الموجودة على الحائط أن "تيتو" حضر إلى القاهرة وان حديثا ما دار بين جمال عبد الناصر وبين تيتو عن المعتقلين الشيوعيين.

وما ان اكتشف السجانة هذا الأمر، حتى بدأت هجمة بربرية من ادارة السجن على المعتقلين، صفعا وضربا بمختلف الادوات. عصى، حجارة.. ربط الحديد من الخلف..الخ.

ولن انسى زكى مراد وهو مقيد اليدين، ومربوط بحبل، والسجان يجبره على ان يأكل التراب وهو يرفض، والضرب مستمر لا يتوقف.

وبعد أيام توقف الضرب، ونقلونا فجأة إلى مبنى آخر، حيث أتت دفعة كبيرة من المعتقلين.. عرفت من هتافاتهم انهم من الاخوان المسلمين. نقلنا إلى مبنى آخر فى السجن الحربى، وبدأت المعاملة السيئة تخف قليلا بعض الشىء.

وفى نفس المبنى وفى القسم الاخر اكتشفنا وجود بعض قيادات الاخوان المسلمين، "الشيخ فرغل" "الاستاذ الهضيبى" "الاستاذ عبد القادر عودة". وبدأت بعض المناقشات معهم ولكن كان الغريب ان بعضهم حتى فى هذه المحنة يرى ان مجرد لمس يد الشيوعى شىء دنس من وجهة نظر الشيخ فرغل.. وللحقيقة والتاريخ كان الاستاذ الهضيبى والدكتور خميس والاستاذ عودة أوسع أفقا.

واهكذا أحسسنا بيأس كامل من الوصول معهم إلى أى حد أدنى من الاتفاق، إلا أننا كنا حريصين حرصا كاملا على استمرار هذه العلاقة حتى لا نفقد علاقتنا بقراءة الصحف، حيث كان مصرحا لهم بها، فى الوقت الذى كنا ممنوعين فيه من قراءتها. وفجأة تبدلت المعاملة وبدأ بعض الضباط يكونون فى منتهى اللطف، ويحاولون الحديث معنا فى السياسة. وكانوا يركزون على محاولة معرفة ايهما نفضل.. عبد الناصر ام نجيب.. عرفنا منهم ان هناك حركة فى سلاح الفرسان تطالب بالديمقراطية والحياة النيابية، كان معظم هؤلاء الضباط مع محمد نجيب. وكانوا يوحون لنا ان يوم الافراج قريب وما علينا الا ان نؤيد محمد نجيب. وما ان امتدت المناقشات حتى كان ردنا، نحن مع جمال عبد الناصر وضد الاستعمار وامريكا.

وهنا اشاحوا عنا بوجوههم.. وعاد الحبس الانفرادى من جديد. وسحبت كل المكاسب التى كنا قد اخذناها مثل قراءة الجرائد او التصريح لنا بتقبل بعض النقود عن طريق الامانات.

سحب كل هذا وعاد للحياة جفافها السابق. وعادوا من جديد لوضع الحديد فى ايدينا من الخلف طيلة النهار. ماعدا بعض دقائق نتناول فيها الطعام أو نذهب فيها إلى دورة المياه.

انه وضع بشع ان تنام ويداك فى الحديد خلف ظهرك.. والحديد يقيد قدميك وكانت المأساة ان بعض حضرات الضباط من المرضى نفسيا يحلو لهم المناقشة معك وانت فى هذا الوضع.

ولم تمض سوى ايام قليلة حتى توقف التعذيب، وبدأنا نتصل مع بعض من جديد فى فترة المساء عن طريق احد السجانة الذى كان يتعاطف معنا بشكل عاقل ورزين. ومن خلال لقاءاتنا المسائية عرفنا ان الاخوان المسلمين قد افرج عنهم واننا وحدنا فى السجن.

وكان واضحا ان الاخوان المسلمين قد انحازوا بالكامل إلى محمد نجيب ضد عبد الناصر، لكن المشكلة بالنسبة لنا اصبحت اكثر تعقيدا. نحن مع عبد الناصر فى مسيرته. ولكن محمد نجيب يرفع شعارات الديمقراطية والحرية والحياة النيابية.. وضع معقد وصعب. ولكننا بحكم تجربتنا السابقة فى تنظيم الضباط الاحرار، كنا نعرف طبيعة هؤلاء الضباط. انهم اساسا ضد الاستعمار، وهم من اوضاع طبقية تفرض عليهم مسيرة لابد وان تتعارض مع الرجعية ان آجلا او عاجلا، وبالتالى كان تأييدنا لجمال عبد الناصر مشروطا بما سبق ان اعلناه برنامجا للجبهة قبل أن نعتقل..

-اطلاق الحريات الديمقراطية.

- حق الشعب فى تكوين احزابه وتنظيماته الوطنية.

- طرد الاستعمار عن طريق الكفاح المسلح.

- عقد معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفيتى.

- اعادة محاكمة خميس البقرى.

واضفنا إليها.. اطلاق سراح المعتقلين والمسجونين السياسيين.

ولم تمض سوى ايام قليلة حتى حضر مندوب القيادة، وعلى ما اذكر كان اسمه احمد

محمود وبعد نقاش طويل، غير منظم، كانت تتخلله بعض الاستفزازات من كلا الطرفين، ابدى اندهاشه اننا مازلنا فى المعتقل، فإن ما ترفعونه من شعارات انما هو ما تمضى فيه الثورة، بل اكثر من ذلك، فالنسبة للعلاقات مع المعسكر الاشتراكى، فيوجد هناك تقدم ملحوظ مع الاتحاد السوفيتى.

وانتهى النقاش بان كتبنا بيانا نوضح فيه موقفنا، والذى عرف بعد ذلك باسم بيان السجن الحربى، وهو لا يخرج عن النقاط التى سبق الاشارة إليها.

وظللنا فى سجننا كما نحن، بلا تغير او تبديل .. حتى نقلنا إلى سجن مصر، حيث توجد معظم كوادر تنظيم حدتو، والتنظيمات الصغيرة الاخرى، بموقفها اليسارى الذى يتهم الثورة بأنها تمثل الفاشية، والبعض الآخر يتهمها انها انقلاب امريكى.

رغم اننا انتقلنا من سجن إلى سجن، وليس إلى الحرية، كنا سعداء اننا سنلتقى برفاقنا من جديد. وما كدنا ندخل سجن مصر، حتى بدأت الهمهات ترتفع عن (بيان السجن الحربى) واننا يجب ان نقصى بعيدا عن الشيوعيين. لقد ذهب البعض فى نظرتهم إلى مطالبة ادارة السجن بان يسكنوننا بعيدا عن الشيوعيين... لقد كان موقفا مؤلما .. ولكن كان يخفف من وقع هذه الصدمة ان هذه التنظيمات فى معظمها لا تعدو ان تكون حلقات معزولة من المثقفين، او تحت قيادة المثقفين، ولا واقع نضالى لها.. تنظيم (الراية) و(النواة) و(الطليعة)..عناوين واسماء كثيرة لا اذكر تفاصيلها.

ولكن هناك رفاقنا فى قيادة (حدتو) "مبارك عبده فضل وفؤاد حبشى" وآخرون لا اتذكر اسماءهم، وقفوا معنا فى صلابة وعناد، وعرفنا منهم بعد ذلك مدى المعاناة التى لاقوها من الرفاق فى القاعدة، ومن التنظيمات الاخرى فى الدفاع عنا، اذ كانوا يتهموننا بالخيانة والعمالة.

وما أن اقبل المساء، واغلقت الابواب حتى وقف احد المعتقلين، واظن اسمه "عبد الخالق الشهاوى" والقى قصيدة يتهمنا فيها بالخيانة والعمالة. ثار رفاقنا حتى الذين كان لهم نفس موقفهم، وفى الصباح كان علينا ان نقابل هذا التهور والاندفاع بالشرح والتوضيح. لقد اكتشفنا ان اعضاء (ل.م) قد اعتقلوا، وانه قد تشكلت قيادة مؤقتة فى الخارج من اعضاء جدد لم يكونوا فى (ل.م) هم.. "محمود توفيق وعبد الجابر خلاف وصلاح حافظ وبدير النحاس".. وان هذه القيادة اتخذت مواقف يسارية التقت فيها مع باقى التنظيمات.

واولها طردنا من الحركة الشيوعية بلا رجعة.. بل تطوع بعضهم وهو صديق لى احبه واحترمه بالمطالبة بتصفيتنا جسديا... والكارثة التى تفوق هذا أن كثيرا من كوادر التنظيم توحدت مواقفها فى النقطة التالية..

ادانة بيان السجن الحربى.. محاكمة الخونة الذين وقعوا على البيان.

البلبلة

لقد ادى تأييدنا لثورة ٢٣ يوليو إلى خلق نوع من البلبلة فى صفوف التنظيم، وخاصة ان الحركة الشيوعية العالمية لم تتعود ان ترى انقلابات عسكرية لها طابع وطنى، فكانت معارضة هذه الحركة جزءا لا يتجزأ من تراث الاحزاب الشيوعية، ماعدا الحزب الشيوعى الايطالى الذى تحفظ فى موقفه.

وزاد من هذه البلبلة ان الثورة كانت تمضى فى طريق معاد للديمقراطية بشكل واضح، وابقت على عدد من المعتقلين ممن سبق وان اعتقلوا بعد حريق القاهرة. وحينما صدر قانون الافراج عن المسجونين السياسيين، استثنى منه الشيوعيين. وشكلت محكمة برئاسة احد المستشارين لينظر فى قضايا الشيوعيين كل على حدة، وانتهى امرها بقرار مضحك مؤداه ان الشيوعية، جريمة اجتماعية، رغم ان وزير الاعلام فى ذلك الوقت سبق وان صرح بان الشيوعية جريمة سياسية.. ولا غرابة فى ذلك فقد كان معتقلا مع الشيوعيين قبل ذلك ولم يفرج عنه الا فى صبيحة ٢٣ يوليو.

كان تأييدنا لثورة ٢٣ يوليو نابعا من مشاركتنا فيها عضويا وسياسيا. اذ كان لحدتو تنظيم فى داخل الجيش، يساهم مع تنظيم الضباط الاحرار، بل ان معظم اعضائه فى تنظيم الضباط الاحرار.

.....

وكان العمل فى الجيش يرجع إلى منتصف الاربعينيات، باعتباره فصيلا من النضائل الوطنية، ولم يكن تنظيم الضباط الاحرار الا صورة من صور الجبهة الوطنية، فقد كان برنامجها يتشابه مع برنامج اللجنة التنفيذية للطلبة والعمال، بل يكاد يتطابق معه.

لذلك فعلاقتنا الوثيقة والعضوية بهذا التنظيم كانت تفرض علينا ان نكون اول المؤيدون له. وهكذا لم يكن مصادفة ان اصدرنا نحن أول بيان لتأييد حركة الجيش طبع وورع فى

القاهرة فى الصباح الباكر لثورة ٢٣ يوليو. كانت مطبعة التنظيم فى ذلك الوقت لا تسمح بطبع منشور يوزع على مستوى واسع، وبالتالى كلفت من الرفاق بطبعه.

ذهبت مع احد الرفاق إلى مطبعة فى السيدة زينب، ودفعت إلى صاحبها بالمنشور، وما كاد بصره يرتفع عن البيان ليناقش، حتى اصدرنا له امرا بالبدء فورا، وكان بيان الثورة قد اذيع. ارتبك الرجل حينما طلبنا منه التنفيذ فورا بلغة الواثقين، وانه لا يوجد وقت لنضيعه.. وبالفعل بدأ الرجل فى التنفيذ. وما هى الا ساعة واحدة كان البيان يوزع فى كل الاحياء وفى وقت واحد.

اجتمعنا على الفور فى حى الزيتون، ومعنا احمد فؤاد عضو حدتو، والذى كان مسئول الاتصال بقسم الجيش، وبدأنا المناقشة فورا فى الواجبات الملقاه علينا، وانتهى الاجتماع إلى ضرورة..

-الافراج فورا عن المسجونين السياسيين. وكذلك المعتقلين.

- تأمين الثورة داخليا ضد المؤمرات.

وعاد احمد فؤاد ليؤكد ان كل شىء على ما يرام، وافرج فعلا عن المعتقلين السياسيين، ولكن لم يعد يرد عن المسجونين السياسيين، وفعلا استمروا فى السجن كأن شيئا لم يحدث، وكنا نركز فى هذه الفترة على الافراج عن "شهدى عطية الشافعى" أول شيوعى حكم عليه بالاشغال الشاقة لمدة سبع سنوات يقضيها فى سجن طره.

اخذنا فى موالاة الاتصال برجال الثورة، مطالبين باتخاذ الخطوات السريعة فى الجبهة الداخلية، والافراج عن المسجونين الشيوعيين.. اذ كان قد افرج عن بعض السياسيين واستثنى الشيوعيين.

بدأ بعض الرفاق فى التنظيمات الاخرى يؤكدون وجهة نظرهم، فى ان ما تم هو انقلاب امريكى وليس ثورة وطنية، ووجدوا فى هذا التلكؤ تكأة لوجهة نظرهم المتطرفة يساريا، وزاد الطينة بلة، ان استغلت الثورة بعض أحداث "كفر الدوار" واقامت هناك مجلسا عسكريا، يترأسه احد الضباط الرجعيين من قادة ثورة يوليو "عبد المنعم امين" واصدر المجلس حكما ارعن ضد "خميس والبقرى" بالاعدام، ولم يجهدوا انفسهم من اجل التعرف على الفاعل الحقيقى والمدبر الخفى الذى أظهرت الاحداث بعد ذلك انه ينتمى إلى "حافظ عفيفى" رئيس الديوان الملكى.

وقامت قيامة الاحزاب الشيوعية والديمقراطية فى العالم، وكلها تدين هذا الاتجاه، وهذه البداية الدموية.

حاولنا المستحيل فى ايقاف هذه الجريمة ولكن لم ننجح. وبذلك اضيفت ورقة جديدة للمنظمات الاخرى المتطرفة يساريا. بل أكثر من ذلك اصبحوا يتهمون حدتو انها شريك فى هذه المجزرة.. وتبعت الثورة ذلك بان قامت بمهاجمة مطبعة حدتو، والتى كانت تطبع لهم مجلتهم ومنشوراتهم قبل الثورة ووضعوا الرفاق العاملين بها فى السجن. ومن المضحك انه فى اول عرض عسكرى، قامت الثورة بعرض هذه المطبعة كجزء من تراث الضباط الاحرار، وهى فى حقيقتها مطبعة حدتو التى كانت تطبع لهم منشوراتهم وأوراقهم.

وفى وسط هذا الجو اصدرت الثورة قانون الاصلاح الزراعى، وكانت لنا مساهمتنا فيه، ولو انه صدر بصورة اخرى، استهدفت العدالة فى توزيع الملكية ولم تلتفت إلى ن يكون الهدف منه هو زيادة الانتاج، الامر الذى ظل يعانى منه هذا القانون، وحال دون انطلاقة ثورية فى الزراعة.

وقد بدأت التظيمات الصغيرة وبالذات منظمة (الراية) فى التركيز فى الهجوم على قانون الاصلاح الزراعى متهمة اياه بأنه صدر لصالح البرجوازية ضد القطاع، ولكن ذلك لم يلق اذنا صاغية لدى الفلاحين، الذين رحبوا به كل الترحيب.

ولكن الثورة كانت تتجه يوما بعد يوم إلى التضييق فى مجال الحريات ومحاولة البطش بكل السياسيين القدامى، دون التفرقة بين مواقفهم. فلا فرق لديهم بين النحاس الشخصية الوطنية الشعبية وحافظ عفيفى رئيس الديوان الملكى وصديق الانجليز.. او بين عبد الفتاح حسن وسراج الدين وابراهيم عبد الهادى الذى انشق على حزب الوفد وعمل لصالح السراى.

كان الاتجاه واضحا نحو تصفية الحياة السياسية من كل العاملين فيها. على امل ان يخلو لهم الجو وحدهم.. ومن الغريب انهم وجدوا فى هذه الفترة الدعم والمساندة والتحريض من بعض رجال الحزب الوطنى، الذين عملوا معهم لفترة كوزراء.. وافرزوا كل عداواتهم الموروثة منذ الحزب الوطنى القديم ضد الوفد، ونسيانهم بالكامل للسراى والرجعية.. وكان التركيز بصفة اساسية على الوفد والنحاس. ولم يستطيعوا ان يكتشفوا ان التناقض التاريخى هو بين حزب الوفد والسراى، وان الوفد كان باستمرار يمثل خطوة ديمقراطية للجماهير الشعبية.

اخذت البلبلة طريقها إلى قواعد التظيم. واخذوا يتجادلون مع فكر المنظمات الاخرى، ولكننا صممنا على موقفنا فى التأييد ومقاومة الاتجاهات الخاطئة لثورة ٢٣ يوليو واتهامها بانها انقلاب امريكى، وانها تمثل الفاشية الجديدة فى المستعمرات، بل اكثر من ذلك، وردا على اعتقالهم لعدد كبير من رفاقنا قررنا ان نطلق سراحهم وان نأخذ المبادرة بيدينا، فتأييدنا لا يعنى الاستسلام او ترك ارارة الحليف طليقة دون ان يشعر بوجودك او دورك.

وكان المعتقل الرئيسى فى هذه الفترة موجودا فى حى روض الفرج وكان به اربعة عشر من اعضاء القيادة. اخذنا فى دراسة الموضوع بشكل هادئ ودقيق بعد ان نظمنا عملية الاتصال بهم فى داخل المعتقل.

وبعد دراسة كاملة للمنطقة وفى الموعد المحدد، كانت هناك ثلاث سيارات فى انتظار اشارة البدء. كان من بينها سيارة المرحوم "يوسف حلمى" وسيارة "ابو بكر سيف النصر" وكان هناك المرشحون للعملية وكنت مسئولا عن هذه المجموعة. ومن الامور المضحكة انه اثناء قيادتنا لسيارة المرحوم يوسف حلمى هذه اصطدمت باحدى سيارات النقل، اذ أن الرفيق الذى يقودها كان مضطرب الاعصاب. وقضينا وقتا طويلا فى تصفية الموضوع مع عسكرى البوليس وصاحب سيارة النقل.

وما ان قاربت الساعة الثانية حتى كان المعتقل خاليا من الشيوعيين. اذ هربوا من المعتقل. وكانت السيارات فى انتظارهم وما هى الا دقائق قليلة حتى كان الجميع فى الاماكن المحددة لهم.

ومن الغريب انه لم يكتشف امر هروب الشيوعيين من المعتقل الا فى الصباح الباكر، وانهار قومندان المعتقل الذى اصبح اضحوكة لدى باقى المعتقلين من الرجعيين، الذين لم نسع بالطبع إلى تهريبهم، بل كنا مع اعتقال البعض منهم، وما ان اصبح الصباح حتى اصيب رجال السلطة بالهيستريا.

إلى بورسعيد

ولم تمر سوى فترة قصيرة على خروجنا من معتقل ابو زعبل فى يونيو ١٩٥٦ حتى بدأنا نندمج فى الحياة من جديد، ونستعيد علاقاتنا القديمة التى قطعتها فترة الاعتقال.

لقد تغيرت نظرة الجماهير إلى الشيوعيين، واصبح المناخ الذى يعيشه الشارع مختلفا تماما عن الفترة التى دخلنا فيها المعتقل.

لقد كان المناخ السياسى فى مصر بعد حريق القاهرة فى يناير عام ١٩٥٢ مسرحا لحملة صليبية ضد اليسار.. حملة تطالب بذبح الشيوعيين فى الشوارع ومطاردتهم كخونة وعملاء.. فقد ركزت الدوائر الحكومية غداة حريق القاهرة على ابراز ان الشيوعيين هم الذين قاموا بالحريق والتخريب، فعلقت افيشات على الجدران يبدو فيها أحد أصحاب المحال المحترقة ووراءه الدمار وآثار الحريق، وكتب تحتها «الشيوعيين فعلوا هذا».

وبقيام ثورة ٢٣ يوليو توقفت هذه الحملة، وبدأ شهر عسل قصير بينهم وبين اليسار. انقطع فى اثر بدأ المفاوضات مع الانجليز واثر احداث كفر الدوار.. وها هى الثورة تعود من جديد إلى احضان الشعب، بعد ان احست ان الامريكان لن يصبروا عليها الا اذا احتووها بالكامل.. فهم يرفضون مدها بالسلاح، فقد تأكد هذا بعد رحلة على صبرى إلى امريكا، كما انهم يسعون لجرها إلى الاحلاف العسكرية. وهم يرفضون تقديم المساعدات الاقتصادية من اجل التنمية، بل اكثر من ذلك يحرضون البنك الدولى على رفض تقديم تمويل لقيام مشروع السد العالى.

لقد اصبح الجو مهيئا تماما لالتقاء الثورة من جديد مع اليسار على ارضية.. عدم الانحياز.. مؤتمر باندونج.. علاقات صداقة مع الاتحاد السوفيتى. تخطيط واسع للتنمية.

خرجنا من المعتقل فى ظل هذه الظروف، وكان علينا ان نعمل بسرعة لندعم هذا الاتجاه ونعمقه.. فكان ان اقمنا «دار الفكر» للثقافة والنشر حيث نجحت فى اقل من ثلاث سنوات فى اصدار عشرات الكتب التقدمية وكلها تبرز الجوانب الايجابية فى خطوات الثورة والوجه الكئيب لأمريكا «هذه هى امريكا».. «التاريخ يحذر من امريكا» وفى نفس الوقت تدعم التضامن العربى «سلسلة القومية العربية»، وتدعم قضية الجزائر «قضية الجزائر والتضامن العربى».

فى ظل هذا الجو المملوء بالحماس والاندفاع، قام عبد الناصر بتأميم شركة «قناة السويس» تلك الشركة التى تسبب حفرها، مع سفه الحكام، فى افلاس مصر، وموت آلاف من الفلاحين فى حفر القناة عن طريق السخرة وتحولت إلى وكر للتجسس.. كانت قناة السويس تمثل فى ضمير كل مصر لعنة لا يستطيع نسيانها. فالنضال ضدها مرتبط بتراث من المآسى.. وبغدر امبراطور فرنسا لمصر، عندما اختاره اسماعيل باشا محكما فى شئونها، فكان قراره فى التحكيم قرار رئيس عصابة (شيخ منسر) يتعامل مع

ضحاياه.. كانت هذه المأساة هى التى دفعت »ابراهيم الوردانى« لاغتيال بطرس غالى باشا.

واستمرالنضال ضد هذه المأساة، حتى نجحنا فى اثارة القضية من جديد وشكلنا لجنة من اجل ذلك فى عام ٥١ اذكر من اعضاءها »زكى مراد واسما حليم واحمد حسين« الحزب الاشتراكى، وسعد غلول فؤاد..واصدرنا كتابا عن تاريخ القناة وما يحمله من مآسى كما دعونا إلى تأميمها. ولكن كان نصيب معظم النسخ ان اشترتها السفارة الامريكية من السوق واحرقتها.

لقد اعلن عبد الناصر بصورة بطولية ودرامية تأميم شركة قناة السويس فى مهرجان بالاسكندرية.. اعلنه بصورة مسرحية.. قدم فيها صورة كاريكاتيرية لسعيد باشا وهو يوقع الاتفاق مع ديليسبس..وفى اللحظة التى اعلن فيها هذا كانت القوات المسلحة تحتل الشركة، وانطلقت الجماهير فى حماسة مجنونة.. الناس يقبلون بعضهم فى الشوارع.. على طوال الطريق من الاسكندرية إلى القاهرة والشوارع مزدحمة تنتظرالبطل الذى رد لمصر.. قناتها.

وبقدر السعادة التى كانت تغمر الجماهير بقدر ما كانت الامبريالية والرجعية العالمية فى حالة توتر. بل أن البرجوازية المصرية اخذت على عبد الناصر عملية التأميم. وكانت ترى أن التمصير هو الحل الأسلم. اى انها كانت تريد أن تكون هى لا الشعب الوريثة للنهب الاستعمارى، وأن تكون ثمار الثورة قاصرة عليها وحدها.

وفى ظل هذا الاطار كان علينا أن نعمل من جديد، وأن نجمع صفوفنا. فالمعركة ضد الاستعمار قادمة لا محالة. وعلينا أن نأخذ عدتنا لها وأن نحول شعاراتنا التى سبق ان رفعناها إلى واقع عملى.

وكان لابد من العمل السريع، واجتمعنا نحن القياديون الموجودون فى خارج السجون- حيث انه كان هناك زملاء لنا فى السجون لم يفرج عنهم بعد- لمناقشة ما العمل؟ ومناقشة احتمال وقوع عدوان مسلح.

وبعد نقاش قصير كان علينا أن نوقف كل الشعارات ماعدا شعار واحد علينا أن نرفعه.. وهو التأييد المطلق لعبد الناصر فى معركته ضد الاستعمار.. وكان بعض المشاركين فى الاجتماع يتصورون ان المعركة انتهت بتأميم القناة، ورفعوا شعار التحذير من خلط الاوراق

بيننا وبين البرجوازية، ونسوا أن البرجوازية نفسها وأن كانت مع استرداد القناة، فإنها تريدها خالصة لها غير مؤممة.. وفى مثل هذه المواقف تكون بذور الفكر اليسارى المتطرف. حيث لا يتمكن التفريق بين مواقف الطبقة التى عليه أن يتحالف معها حتى ولو كانت بعض شرائحها غير واعية بقيمة هذا التحالف، فعليه أن يقنعها به وأن يدفعها اليه.

وبالفعل ما أن بدت نذر العدوان المسلح تبرز فى الافق حتى اتضح لهم ان جزءا من البرجوازية لا تريد التمصير ولا التأميم بل تأمل فى أن تظل الأوضاع كما هى عليه، وبالفعل فما أن بدت نذر العدوان فى الافق حتى شكلت شريحة من البرجوازية العليا وفدا منها لمقابلة عبد الناصر، لاقناعه ان ما اقدم عليه خطأ، وأن عليه أن يترك لهم الامر لتسويته مع الانجليز، اذ انهم اكثر معرفة منه بالانجليز، وكان موقفه قاطعا اذ طلب تشكيل فرقة صغيرة لاطلاق الرصاص على اى واحد منهم يحاول أن يتقدم ليتفاهم معه فى موضوع التراجع عن تأميم القناة أو التسليم بمطالب البريطانيين.

حينئذ شعرت هذه المجموعة ذات الموقف اليسارى أن موقفها خاطئ ولكنها كانت تستبعد العدوان المسلح، مبالغة منها فى قوة حركة السلام العالمى وتهوينا منها بشأن الاستعمار والرجعية المحلية.. ولكن الاجتماع التالى انتهى إلى أن العدوان واقع لا محالة وعلينا ان نتخذ عدتنا له، وأن نعرف الاجراءات التى سيتخذها الاستعمار لتنفيذ جريمته.

واستمرت المناقشة طويلا فى هذه الجلسة إلى ان قطعها احد الرفاق بشكل حاسم.. محددا ما هو المطلوب بالدقة.. مادمنا قد وصلنا إلى أن المعركة واقعة لا محالة.

ونظرالرفاق إلى بعضهم وانتهى الاجتماع إلى القرارين..

اخذ المبادرة فى مقاومة العدوان المتوقع، وحشد كل الجهود من اجل الكفاح المسلح.

تجميع اكبر قدر من المعلومات عن تحركات العدو وتجمعاته.

وكان ذلك هما القراران الذى انتهى اليهما الاجتماع، وعند مناقشة موضوع المقاومة والكفاح المسلح، واخذ المبادرة بين قوات التحالف الوطنى. توقف الجميع عن المناقشة، واستمرت المناقشة دون نقاش، ولكن مجرد نظرات فيها معنى الحيرة والمفاجأة ومواجهة موقف جديد لم يعرفه بعض المشاركين فى الاجتماع، إذ كان الاجتماع يضم قيادات لها اصول تاريخية مختلفة، بعضها سبق له الخبرة فى النضال المسلح وبعضها لم يتعرف عليها.. كنا فى ذلك الوقت اعضاء فى الحزب الشيوعى الموحد.

وبعد صمت طويل اقترح الرفيق »مبارك« اسناد قيادة العمل ضد العدوان إلى احمد الرفاعى ونظرالرفاق إلى بعضهم فى صمت طويل وكان الرد على الاقتراح الموافقة بالاجماع. وبعد أن تحول الاقتراح إلى قرار شكرت الرفاق على اسنادهم هذا الشرف لى..وانتهى الاجتماع..وبدأت مواجهة الموقف الصعب مع الزوجة.

احسست بمدى فداحة المسئولية الملقاه على عاتقى وعلى عاتق الحزب، وأن امام حزبنا ان يكتب صفحة جديدة مشرفة تتفق والطموحات التى يطرحها على الجماهير، صفحة تحول الكلمة المكتوبة إلى واقع عملى، وتمتحن فيه شجاعة الشيوعيين، وصدقهم فى مواجهة الموقف، فالعدوان واقع لا محالة والمقاومة هى المحك، وصدق المناضل يتلخص فى موقف واحد.. فى موقفه مواجهة الموت والاستشهاد.

حملت اعبائى واستأذنت من الرفاق، وخرجت من الاجتماع، حيث كان منعقدا فى احدى الغرف فى سطح منزل بالعتبة، وقطعت الطريق مشيا على اقدامى حتى المنيرة، محل المشى يوصلنى إلى حل استطيع به ان اتقدم بما انتويه إلى زوجتى، وهى المحملة بكثير من الاعباء. فقدان ابنها الوحيد وأنا فى المعتقل. موت امها فى حادث مؤلم. سنين المعتقل الطويلة التى عاشتها بمفردها فى اسرة لا تعترف بهذا الطريق، بل وترفضه وتقاومه فى كثير من الاحيان.

كنت اشعر أن زوجتى قلقة، فهى تستمع إلى الاذاعة، وما تنشره عن اجتماعات المنفتعين من شركة قناة السويس، ولقاءاتهم المتوالية فى لندن وباريس، ثم تفويضهم لرئيس وزراء استراليا »منديس« لما عرف عنه من صلافة لمقابلة عبد الناصر.. كل هذه الاخبار وغيرها تنشرها الاذاعة المصرية، والاذاعات العربية والعالمية.. ثم يلى ذلك رحيل العديد من المرشدين وخبراء الملاحة فى القناة..كل هذه الاخبار كانت كفيلة بان تجعل كل مواطن يشعر أننا مقبلين على وضع جديد.

وفى صباح اليوم التالى، ناقشت زوجتى مناقشة قصيرة تدور حول غيابى لبضعة ايام اقضيها لانجاز بعض الاعمال.. لم اترك لها فرصة للمناقشة او البكاء وانما انصرفت شبه هارب من مواجهة هذا الموقف.

اتجهت إلى منزل احد الرفاق الذى اكد لى انه وصلته رسالة من باريس عاجلة، تؤكد أن القوات الانجليزية والفرنسية تتجمع لا اذكر فى قبرص أو مالطة، وأن العدوان واقع لا

محالة.. وبذلك اسقطت حجج الذين كانوا يتصورون ان الانجليز والفرنسيين لن يقدموا على هذه المغامرة، حتى عبد الناصر نفسه كان إلى هذه اللحظة يجزم باستحالة وقوع عدوان مسلح.

اتصلت ببعض الرفاق ممن اعرفهم معرفة جيدة «ابراهيم المناسترلى وفتحى مجاهد وعبد السلام الخشان ومنير موافى ومحسن لطفى» واتجهنا إلى الاسماعيلية وهناك توقفنا قليلا فى قرية «طويحر» لاستلام بعض الاسلحة، حيث اقترح الرفيق الضابط «محمود المناسترلى» أن يقوم بنوع من التدريب السريع للرفاق على الاسلحة الجديدة المستعملة، وفى هذه الاثناء تم العدوان المسلح.. وسقطت بورسعيد.

تغيرت خطتنا، فبدلا من الذهاب إلى الاسماعيلية، فكرنا سريعا فى الدخول إلى بورسعيد المحتل المحاصرة، حيث قضى تماما على القوة العسكرية التى كانت موجودة هناك.

قبل الذهاب إلى بورسعيد انتقلت إلى الاسماعيلية حيث يعسكر «كمال رفعت » فى قرية «نفيشة» فى فيلات. صاحبها من العرب اسمه «ابو خزيم».. عرضت عليه خطتنا لدخول بورسعيد، ولكنه اسر إلينا انه سيدخلها عن طريق الاسماعيلية ولما عرضنا عليه استحالة ذلك اصر وطلب فرصة للتفكير.

وفى المساء فوجئت به يسير إلى حيث خرجنا فى مهمة استطلاعية لبحث امكانية استخدام الطريق.. وفى الطريق فوجئنا بسيارة عسكرية انجليزية تستكشف الطريق.. وفى الحال اشار كمال رفعت إلى وشخصين آخرين أن ننبطح ارضا على جانبى الطريق لتغطيته، وقام هو فى الحال وبصورة مفاجئة باطلاق النار على السيارة واستمرت طلقاتنا عليها فولت الفرار. رحم الله كمال رفعت فلقد كان بطلا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانىٍ عظيمة، كان انبل الفرسان الشجعان، كما قال احد اصدقائه فى رثائه.

عدنا إلى المعسكر.. وما كدت افاتحه، حتى ابدى عدم قناعته بدخول بورسعيد عن طريق الاسماعيلية.. وفى نفس الوقت ابدى تساؤله.. هل عندكم وسيلة أخرى لدخول بورسعيد.. ولم تكن هذه التساؤلات تحتاج اجابتها إلى تفكير، فلقد ذهبت اليه وانا اعرف تماما أنا ومن معى طريق التسلل إلى بورسعيد، إذ أن معظم الرفاق الذين معى من هذه المنطقة، ويعرفونها جيدا، وسبق ان شاركنا سويا فى محاولة لانشاء نقابة للصيادين فى الاربعينيات.

ولما شرحت له أن الدخول سيتم عن طريق المنزلة، وبواسطة الصيادين، ابدى مخاوفه ولكنه وافق مؤكدا انها مغامرة لابد أن يخوضها..ولكنه فوجئ بى وأنا اقول له.. ولكن المجموعة التى تعمل معك لا يمكن ان تصلح لهذه المغامرة.. اذ ان معظمهم من اللصوص وقطاع الطريق وممن سبق لهم العمل مع القوات البريطانية فى القنال، أو ممن كانوا يسرقون المعسكرات..وهنا ضحك كمال رفعت طويلا، وشرح وجهة نظره فى استخدام هؤلاء الناس. فأكد أنهم خير من يعرف منطقة القنال.. ولكن مقدراتهم لا تتعدى القتال الفردى فى هذه المنطقة فهم لا يصلحون للعمل فى خارجها.

وفى المساء استدعى كمال رفعت عددا من رجاله المقربين «عبد الفتاح ابو الفضل» ضابط المخابرات الوطنى الذى يعرف منطقة القنال شبرا شبرا. «صلاح زعزوع» الضابط الحر وابن الاقطاع المتمرد عليه. «سمير هريدى».. واجتمعنا سويا ومعنا محسن لطفى واتفقنا على أن نسافر إلى بورسعيد فى نفس الليلة.

لم يكن احد من المجتمعين يعرف الطريق إلى بحيرة المنزلة، حيث يوجد موقعها مباشرة فى ظهر بورسعيد واتفقنا على أن اتولى توجيه الثلاث سيارات التى كنا نستعملها، وما كدنا نصل إلى المنصورة، حتى وجدنا استحالة فى مواصلة السير فى الطريق إلى المنزلة، حيث الضباب كثيف يحول دون الرؤيا واتفقنا على أن يجرى كل واحد منا امام السيارات كدليل تركز عليه الاضواء لمسافة ٣٠٠ متر. كانت مهمة ثقيلة وصعبة حيث البرد والضباب، ولم يكن الطريق بعيدا. واستمر هذا النضال الطويل ونحن نتبادل الجرى حتى اقتربنا من قريتى «طناح» وهناك اشرت عليهم أن نقضى الليل فى القرية ونستأنف المسيرة فى الصباح. وفعلا توجهنا إلى منزل العمدة وهو ابن عمى وفى نفس الوقت زوج اختى، وكان استقباله لنا حافلا، فلقد اصر على أن نتناول العشاء ولكن الاجهاد الشديد كان يشكل استحالة دون تلبية دعوته، ونمنا كما كنا بملابسنا حتى الصباح، وبعد أن تناولنا الطعام اتصلت بعدد من الرفاق من ابناء القرية الذين اظهروا استعدادهم الكامل للاشتراك فى القتال بشرط أن ينالوا قسطا من التدريب فى اقرب مركز.

ومن الذكريات التى لا انساها اننا فى الصباح، ونحن لازلنا فى القرية، فى طريقنا إلى بورسعيد، غرست عجلات السيارة فى وحل الشتاء، وكانت هناك استحالة لانتشالها إلا

بمجهود شديد، وكانت المفاجأة ان ابناء قريتى، ومعظمهم اصدقائى وأقاربى، وقفوا يتفرجون ويتضاحكون. الامر الذى دفعنى إلى نهرهم، وفعلا تقدموا لدفع العربة.. ولكن قبل أن يقوموا بذلك التفتوا إلى احد المرافقين لى من الضباط وتهكموا عليه بشكل مرير قائلين له.. لماذا لا تأتى بالطلبة «بتوعك» ليدفعوا السيارة. والا الحكاية منظرة، فاكرين ان الفلاحين ماينفعوش فى حمل السلاح.

واستفسرت منهم وهم يدفعون السيارة فكانت اجابتهم.. انهم ذهبوا إلى معسكر طويحر وإلى نفيشة وان حضرات الضباط صرفوهم، وابقوا على الافندية وقالوا لهم.. سنستدعيكم عند اللزوم.

.. قفزت إلى ذهنى فجأة قضية الطبقية، ان المعركة رغم ضراوتها، فكثيرين لازالوا فى اعماقهم يرون أن المعركة معركة المثقفين واولاد الناس، اما الفلاحين فلا مكان لهم، تلك هى المأساة التى نعيشها ، الثورة لا تثق فى السلاح فى ايدى العمال والفلاحين. ولكنها تطمئن اليه حينما يكون فى ايدى المثقفين وابناء الناس من البرجوازية، لم يكن الوقت وقت الحديث فى هذه القضية، فهذا هو جرح الثورة الذى سيظل ينزف حتى يقضى عليها، وتستسلم لشريحة من الطفيليين.

وفعلا دفع الفلاحون السيارة، وتقدم واحد منهم اعرفه جيدا هو «الشحات الصعيدى» الذى كان زميلنا فى «حدتو» .. والله الحكاية ماتنفعش من غيرنا. سيبك منهم احنا الرجالة وبس.. كفك يا راجل.. وضحكنا سويا وايضا مع الزملاء الضباط.

وما كادت السيارة تنطلق إلى الطريق العادى، حتى انخرطنا فى الضحك. وبدأت اسأل حضرة الضابط عن حكاية الفلاحين، ولماذا طردهم من المعسكر ، فكانت اجابته أن احساسه حدثه بأن الطلبة اقرب إلى فهم القضية، واقدر على تعلم السلاح ولكنه الآن من خلال تهكمات الفلاحين وعمال الزراعة احس ان المعركة اكبر منا ومن الطلبة والمثقفين.

ومضت السيارات فى طريقها من قرية طناح حتى وصلنا إلى «المطرية» وهى بلدة صغيرة، كل سكانها من الصيادين، وتقع على شاطئ البحيرة فى ظهر بورسعيد، بل هى اقرب مكان إلى مدينة بورسعيد.

وما كدنا ننزل فى المطرية، ونحتل مبنى الوحدة المجمعة، حتى كانت عيون المرافقين تتجه إلىّ. وكأنها تسألنى.. ثم ماذا بعد ذلك؟ ماذا نحن فاعلون..؟

اعرف المطرية جيدا وكذلك القرى المحيطة بها، ولكنى احسست فى القرية الكبيرة بحركة غير عادية، فلقد اصبحت مليئة بالمهاجرين منذ أن احتل الانجليز والفرنسيين مدينة بورسعيد.. صغار يهيمون على وجوههم بحثا عن اسرهم، او لقمة خبز يبتلعونها.. امهات تبحث عن صغارها.. شيوخ مسنون لا يقوون على السير.. وانشئت هناك ادارة لتسهيل حياة المهاجرين، تحت قيادة ضابط هرب من معركة بورسعيد، ووجد فى قضية المهاجرين تسلية له، قد تحفظ له وظيفته فى الجيش، وتعطيه الحق فى لبس البدلة العسكرية.

لقد كانت جميع الطرق الزراعية المتفرعة من مدينة المنزلة مملوءة بالاسر التى خرجت على عجل من بورسعيد بعد احتلالها..اطفال بلا اسر.. امهات يبحثن عن اولادهن. زوجات يبحث عن ازواجهن.. يمضون على الطرق الزراعية بلا هدف. الفلاحون يقفون على الطرق الزراعية ومعهم الخبز والجبن والبيض وكل ما يملكون تقديمه إلى المهاجرين . يدعونهم للنزول فى قريتهم. بعض المهاجرين يستقر فى هذه القرية، وبعضهم يواصل السير ليستقر فى قرى اخرى، ولو سألت احدهم لماذا فضل هذه القرية عن تلك، لما وجدت عنده اجابة.

ومع هذه الصورة تبرز صورة اخرى لبعض الضباط الهاربين من بورسعيد ، فى سيارتهم الجيب وهم يطوفون على الطرق الزراعى يوزعون الأوامر على الفلاحين والمهاجرين، وهم متأكدون أن الاهالى يكنون لهم فى نفوسهم اعمق انواع الاحتقار.. لقد اصبحت مأساة المهاجرين قضية يعيش عليها الكثيرون، وسوق لتجار السوق السوداء. الذين يستولون على انصبتهم من التموين، ليعيدوا بيعها لهم من جديد.

وفى المقابل كان الضباط الذين معنا، بعضهم يتعجل الانتقال إلى بورسعيد بشكل فيه رعونة ودون أن يعرف ماذا سيفعل.. كل ما يفكرون به مجموعة من القنابل تلقى على الانجليز أو حركة اغتيالات يقومون بها.. والبعض الاخر فى حيرة من امره.. ولا يعرف موقف القيادة من الاشتراك مع الشيوعيين.

وبعد فترة يعود الضابط الشيوعى محمد منير موافى من مقابلة مع عبد الحكيم عامر، بعد أن أوضح له عن طريق أحد كبار الضباط أن مشاركة الشيوعيين فى المعركة أصبحت شيئا اساسيا وضروريا. عاد اليوزباشى منير موافى بهذه الموافقة التى بددت تردد البعض من الضباط من قضية مشاركتهم الشيوعيين فى المعركة. وكأن الشرط الأساسى لمحاربة الانجليز، هو ألا تكون شيوعيا.. ولو تذكروا فداحة الهزيمة العسكرية فى بورسعيد

لكان عليهم أن يتعرفوا على الحقيقة، أنهم كانوا يحاربون الانجليز والفرنسيين بينما عيونهم الحذرة على العمال والفلاحين، يخشون تطور المعركة وانتقالها إلى صفوف هؤلاء، حيث سيفرض ذلك ابعادا اجتماعية لمعركة التحرير.

وفى صباح اليوم التالى وصلت رسالة من «سعد رحمى» من داخل بورسعيد، يحملها ابراهيم هاجوج من ابناء بورسعيد..وزميلى فى المعتقل فى عام ١٩٥٤.

الرسالة كانت تتضمن اشياء كثيرة.. أن هناك عشرات الجماعات التى تحاول أن تعمل ولكنها لا تعرف كيف تعمل.. بل أن بعضها يحاول أن يتخذ من المأساة التى حلت بالبلد وسيلة لاثبات مجده.

وكما قال سعد فى رسالته.. الآن يوجد أمامى «الف نصاب وكداب زفة، اسماء المنظمات التى تدعى أنها تعمل كثيرة وكبيرة اذكر منها «الانتقاميون» «الأحرار» و«المدمرون» و«هاتاشاما» تلخيص لاسم هيئة التحرير التى ولدت وماتت فى بداية الثورة والتى كان شعارها «الاتحاد والنظام والعمل».. كلام لا يمثل شيئا فى المجتمع أو للمجتمع، ولذلك ماتت بالسكتة القلبية بعد أن افرزت عشرات العناصر المتطفلة التى لازمت الثورة وهى تئن بحملهم بعد أن نجحوا فى ضرب كل العناصر المناضلة الوطنية والوفدية والاشتراكية والشيوعية.

كانت منشورات هذه الهيئات تعبر عن القائمين بها، فهى شعارات ساذجة بعيدة كل البعد عن المعركة فعلى سبيل المثال.. اصدرت هاتاشاما منشورا على نطاق واسع. حتى الانجليز انفسهم الصادر ضدهم المنشور، لم يكونوا يفهمونه، بل كانوا يسألون الجماهير عن مضمونه.. «عودوا إلى بلادكم.. ملككم امرأة».

كان لابد من الانتقال بالمعركة إلى صفوف الجماهير، واشراكها بكاملها فى المعركة.. فالمدينة يسيطر عليها مسحة من الحزن، منازل مهدمة، جثث حيوانات متعفنة فى الشوارع. التموين على وشك النفاذ . التجول محظور مساءا. معركة التجويع تفرض على الجماهير لاجبارها على العمل مع المحتلين، جهاز السلطة انتهى وتبدد ومن تبقى منهم فى المدينة فى حماية الانجليز.. الجماهير تحس بمرارة الهزيمة وأن الجميع تخلى عنها. الصحافة ممنوع دخولها إلى المدينة. الدمار فى كل مكان. التمزق النفسى يسيطر على الجميع.

بدأنا بادخال بعض العناصر الجيدة إلى المدينة. وكانت الوسيلة هى الاتفاق مع بعض

الصيادين ممن يعرفون بحيرة المنزلة شبرا شبرا، وممن سبق لهم أن كانت لنا بهم صلات سابقة.. كان المظهر الذى يختفون تحته هم أنهم مهربون..يهربون المؤن لبيعها باثمان عالية فى المدينة استغلالا لحاجة الجماهير وفى نفس الوقت تقديم رشوة وخلق علاقات مع نقاط الحراسة التى تحاصرالمدينة... وكان المدخل الأساسى عن طريق «عزبة فاروق».

وفى نفس الوقت قام بعض الرفاق بمسح الجزر الصغيرة المتناثرة فى بحيرة المنزلة، لاتخاذها نقاط مراقبة لمعرفة تحركات العدو، ورصد حركات بعض الذين يحاولون التعاون مع المحتل.. واتخاذ مخازن لبعض البضائع التى نهربها إلى بورسعيد ومعها بعض الأسلحة الصغيرة.

وكان لابد أن ينتهى ذلك بأعداد مركز لنا فى بورسعيد قريب من البحيرة، حيث نتخذ منه مكانا لاستقبال المشاركين الجدد الذين يدخلون من المطرية إلى بورسعيد، حيث يغيرون ملابس الصيادين التى كانوا يلبسونها ويرتدون ملابس عادية تجعلهم ينخرطون فى وسط السكان بشكل عادى.. كان هذا المركز هو منزل «أم سعيد الضو البمبوطى» والذى كان يعمل قبل ذلك فى طلاء السفن. سيدة ضخمة الجثة مفرطة فى السمنة، تخطت الستين. تجلس أمام منزلها الطينى فى اطراف بورسعيد، قرب عزبة فاروق. ترعى فى جلستها قليلا من البط. تخرط له الخيار وبعض حزم البرسيم، من يراها يظن أنها جزء ثابت من المكان، أو انها تمثال جالس لا حراك فيه.

ما ان يصل إليها أى انسان ويسألها عن اسم شارع متفق عليه، ولا وجود له حقيقى، حتى تتحرك فيها حاسة يقظة، وتخرج عليه سجاير ومشط كبريت وتبدو كما لو كانت تساومه فى الثمن. لم تكن مساومات وانما كان شرحا له إلى أين يتجه ومن سيكون فى مقابلته، وفى بعض الاحيان كانت تشير على البعض أن يدخل من باب خلفى ليغير ملابسه ويتسلم منها سلاحا او رسالة.. سيدة مصرية عظيمة مثل الالاف من نساء مصر ممن يمكن أن يلعبوا دورا عظيما.

حينما اتذكرها اتذكر بعض اسماء مصريات بارزات كـ «هدى شعراوى» وغيرها.. ولكن التاريخ عادة لا يقف بباب الفقيرات. لا صحافة تبرزها. لا ثقافة تقدمها إلى الجماهير.. لا اسرة تعتز بانتسابها إليها. من الأرض أتت وفى الأرض عاشت وللدفاع عن أرضها رصدت حياتها. وانجبت لها سعيد الضو وأخوه الذى نسيت اسمه. مصريون سمر. عمال. فيهم حسم العامل وبساطته ورؤيته الصادقة الواضحة.

مرت الأيام وانتهت معركة بورسعيد. وبدأ الجميع فى العودة إلى اعمالهم بل وإلى بيوتهم، والأصح كل عاد إلى طبقته.. وإلى من يعود سعيد الضو.. إلى اسرته التى تماثل الآلاف من الاسر المطحونة. لا عنوان لها.. لا اسم لها.. يطوف على بيوت الذين عرفهم فى المعركة أو فى اعقابها.. بعضهم كان له مركز اجتماعى وحظوة عند السلطة.. الجميع يتهربون منه..

يأتى إلى لأحل له المشكلة. يحدثنى بمرارة.. نسيتم العجوزة أم سعيد الضو لسه عايشة وبتسأل عنكم. وبعد أيام يعود إلى بوجه باسم. فأسأله.. هل وجدت عمل يا سعيد.. فتتسع ابتسامته وتكون الاجابة بالنفى.. طبعا لا.. ويستطرد موجها حديثه إلىّ.. يظهر أنك مش منهم زى حالتنا، مش منهم ليه يا سعيد.. بيوتهم كبيرة وعليها حراس. بيتك لا حراس ولا دياولوا. ادخل على طول. يظهر أنى اللى راح اساعدك.

نضحك سويا وتتوثق علاقتنا.. ويبتعد تماما عن كل الذين كان يذهب إليهم وكان يظنهم اصدقاءه. وتزداد علاقته معى ارتباطا وثقة. وبعد شهور يعود من بورسعيد وأراه من جديد. نظارة برسول. حزام عريض. قميص ملون.. انظر اليه باندهاش.. ما هذا كله يا سعيد.. ويبتسم ويخرج فلوس من جيبه.. انا باشتغل الآن. ايدى تكسب دهب. اهن من جديد سفن باليومية. واتجوزت البنية. فاكرها..ويغرق فى الضحك.. كانت زمان فاكرانى اصبحت من الحكام.. ويعلو صوته بالضحك والتهكم على نفسه.

كنت أتذكرها جيدا رغم بعد المسافة والزمن.. كان يختفى فى بعض الاحيان لمدة ساعات أثناء معركة بورسعيد. ثم اراه فجأة. واسأله.. كنت فين يا سعيد.. ويبتسم.. كنت مع الحتة بتاعتى.. ولازلت أتذكره عائدا بعد غيبة من هذه المقابلات ساخطا لاعنا. اسأله عن السبب. فيكون رده.. المجنونة عاوزانه نتجوز الآن.. وما هو المانع يا سعيد.. ألا ترى الخراب والدمار والموت. ولكنه لا يلبث أن يبتسم ويعود مرحه من جديد. ويذهب ليعود بكمية من الصيد شواها عند امه. ويبتسم .. هدية أم الضو للرجاله.. بسم الله يا رجاله.. ولا ينتظر أن نبدأ ونجد انفسنا فى لهفة، تتسابق ايدينا إلى السمك الصغير المشوى المملح. له طعم خاص، ويثير الشهية. وطوال الأكل لا يمل الحديث عن أم الضو وعن الغليون اللى اشتغل عليه فى «بيريه» فى اليونان.

وأعود مرة أخرى إلى عملنا فى بورسعيد. ولعله من الغريب أن هؤلاء السكان لازالوا يحتفظون بلهجتهم العربية الاصيلة التى لم تتأثر باللهجة المصرية. مما يؤكد أنهم عاشوا فى داخل هذه الجزر بمعزل تماما عن سكان القرى المجاورة. فهم ينادون مثلا يا فاطمة ولا يقولون يا فاطنة.. وينطقون القاف مقلقلة صحيحة، وانسابهم يعودون بها إلى اسماء القبائل العربية الأولى التى نزلت إلى المنطقة، مثل بنى تميم أو النجديين. وهم يعيشون عيشة تكاد تكون بدائية، يربون الابقار والجاموس بالمشاركة مع سكان القرى ويعيشون على البانها، وعلى الاسماك التى يصطادونها من المناطق الضحلة فى صناديق تشبه المراكب.. جزر جميلة، بقليل من الاهتمام كان يمكن أن تكون من أروع الأماكن السياحية.

حددنا فى هذه الجزر أماكن تصلح لمراقبة الطيران البريطانى، وتخزين السلاح، وتموين القوارب التى ستحمل الافراد الذين يعد ترتيبهم لدخول مدينة بورسعيد.

وفى ليلة وبعد منتصف الليل ركبنا احد المراكب الشرعية ومعنا كدليل »سعيد الضو« والضابط »محمد ابو نار« و»صلاح زعزوع« و»سمير هريدى« والفنان »عبد المنعم القصاص« وآخرون لا اتذكر اسمائهم. وتصل المركب محملة بالليمون والطماطم والسمك وبعض الطيور البحرية. وما أن وصلنا حتى عرضنا بعضها على افراد منطقة الحراسة من الانجليز فى عزبة فاروق. وكان معظمهم من الشباب الصغار الذين لا يتجاوز سن اكبرهم العشرين.. بمجرد مناقشة صغيرة تختفى من على وجوههم مسحة العدوان، ويتحولون إلى اطفال يتبادلون النكات مع المواطنين بل اكثر من ذلك كان بعضهم يلعب الكرة الشراب مع اطفال عزبة فاروق.

المدينة تعيش فى كآبة صامتة.. بيوت مهدمة. بعض الاسر تعيش بالقرب من منزلها المهدم، وتواصل حياتها بجواره كما لو كان منزلها المهدم هو المحور الذى تتجمع حوله الاسرة، يطبخون ويأكلون ويغسلون ملابسهم، يعيشون فى خيام صغيرة من البطاطين وملاءات الاسرة، يتجمعون حول نار يوقدونها فى بعض بقايا اثاث الاسر المهاجرة ليحموا انفسهم من برد ديسمبر القارص. ومن حين إلى آخر تتقدم بعض القوات البريطانية لتفتيش هذه التجمعات الصغيرة، ولتهدم خيامهم التى لا يلبثون أن يقيمونها من جديد.

لقد انتهى حى المناخ وتجمع الاهالى فى الحى العربى. وفى عزبة فاروق وفى القبوطى حيث انتشر بين سكانها جميع الذين هربوا من السجن حينما اسقطت الطائرات إحدى قنابلها عليه.

ولكن سرعان ما وحدت المحنة بين الهاربين من السجن والاهالى، ولم تقع أى جريمة عدوان أو سرقة، بل فى أوقات المحنة ظهر منهم مقاتلون جيدون.

بدأنا الانتشار فى المدينة، بعد أن اخترنا بعض البيوت للسكن فيها وكان معظمها فى الحى الافرنج حيث لا تحوم شبهات حول سكانه، إذ أن معظمهم من الاجانب أو من الاسر الثرية، التى لا ترتاب فيها القوات المعتدية، ريبتها فى سكان الاحياء الشعبية.

ولكن كان السؤال الذى يطاردنى فى هذه الفترة. كيف نعمل؟ رفاق متحمسون، ولكن ما العمل؟، لا سلطة فى المدينة، لقد تبددت مع الانزال، لا تموين، لا صحافة، الناس بمعزل عن بعضهم تماما. لقد انقطعت اواصر العلاقات.. الكراهية عميقة لرجال الحكومة الذين تخلوا عنهم فى ساعة المحنة ولاذوا بالفرار وبالذات رئيس المباحث الذى هرب بعد أن سلم اوراقه للقوات البريطانية ليواصلوا مهمته فى مطاردة الوطنيين.

كان لابد من الخروج من هذه الحالة، واشعار السكان انهم شعب له قوته وقدرته على النضال، حتى ولو فقد الثقة فى حكامه.. وعلى الفور قررنا اصدار مجلة اسميناها «الانتصار». اعدت اكليشيهاتها وبعض موادها فى «دار الفكر» وتوليت اصدارها ومعى «عبد المنعم القصاص».. واقمنا كذلك لجنة لتنظيم التموين ومنع وصوله إلى القوات المحتلة.. ولجنة تتولى الاتصال ببقايا التنظيمات النقابية والشعبية لتحييها من جديد.. ولجنة تتولى التحريض ضد قوات الاحتلال، وبث الرعب فى نفوسهم.

ولجنة تتولى أعمال العنف والقنص ضد القوات المعتدية.

كانت بداية عملنا اعادة الثقة للجماهير فى نفسها، وفى قدرتها على الوقوف من جديد وأن توضح لهم أن العناصر التى تخلت عنها فى وقت المحنة لا يمثلون مسيرة الشعب، وعصاة لعبد الناصر وارادته فى مواصلة النضال.. وكان على رأس هؤلاء العصاة محافظ المدينة المستسلم.

ورئيس قلم المباحث الذى ادعى أن رجله قد اصيبت ووضعها فى الجبس، وولى هاربا تاركا مدينة بورسعيد، بعد أن اعطى للانجليز جميع ملفاته الخاصة باسماء الشيوعيين والديمقراطيين من أبناء المدينة.. هذا إلى جانب عشرات الضباط الذين اهدروا الشرف العسكرى، وهربوا بعد أن تركوا كل الأوراق والخرائط الخاصة بالمعركة، والتى قام الضابط منير موافى بجمعها أكواما وحملها فى سيارة حتى لا تقع فى أيدى القوات المعتدية.

واللجان التى انشأناها لتنظيم التموين أو التحريض ضد العدو أو ممارسة أعمال العنف، لم تأت من فراغ، وانما حرصنا على أن نضع فيها كل من كان يمارس هذا العمل ، حتى قبل احتلال المدينة.

فعلى سبيل المثال فإن لجنة تنظيم التموين، ضمت عناصر لهم سابقة عمل فى ذلك المجال.. بل بدأنا فى البحث عنهم فى كل مكان وتجميعهم من جديد.. حقيقة لقد انهار جهاز السلطة فى المدينة.. ولكن من الخطر أن تستمر المدينة بلا جهاز.. وكان الحل هو استبدال جهاز منها بآخر فتى، يستفيد من خبرة من سبق لهم العمل فى هذا المجال.

كانت اللجنة التى تقوم بهذا العمل تحرص اساسا على أمرين أساسيين:

اولهما.. مكافحة أى محاولة لخلق سوق سوداء فى أقوات الشعب، أو الاستفادة من المأساة التى تعيشها الجماهير.

ثانيهما.. عدم وصول أى سلعة للعدو، حتى يشعر بصعوبة الحياة فى المدينة.

ومن هنا كانت النشرة اليومية التى تعلق فى كل مكان فى المدينة، محددة اسعار السلع أو تنشر فى مجلة الانتصار.

فعلى سبيل المثال نشرنا فى مجلة الانتصار الآتى:

اشتر بهذه الاسعار

اصدرت مراقبة التموين هذه اللائحة التى تضم جميع اسعار الخضروات

الطماطم ٢٥ مليم للاقة

بطاطا ١٥ مليم للاقة

بطاطس محلية ٢٠ مليم للاقة

بطاطس هولندية ٤٠ مليم للاقة

كوسة ٢٥ مليم للاقة

سبانخ ٢٠ مليم للاقة

الباذنجان ٢٠ مليم للاقة

قلقاس ٢٥ مليم للاقة

كيروسين ١٩٠ مليم للتر

كانت اسعار السلع تنشر يوميا، وتقوم اللجان بمراقبة الباعة والسوق وبذلك استطاعت بورسعيد فى ظل المحنة، أن تتجاوز شراسة السوق السوداء، والعناصر المتطفلة التى لم تنجح فى تكوين هيئة أو شريحة تتحكم فى أقدار الناس.

وإذا كانت لجنة التموين قد نجحت فى تحديد أسعار السلع، فلقد نجحت ايضا فى منع السلع من الوصول إلى أيدى الأعداء، بل كان الأهالى أنفسهم حراسا لهذه العملية. فلقد حدث أن قام أحد التجار ببيع كيروسين إلى الانجليز، متحديا قرارات لجنة التموين، وجريا وراء الكسب السريع، فما كان من الأهالى من ابناء حية، إلا أن قاموا بحرقه حيا بعد أن اوثقوه بالحبال وصبوا عليه الكيروسين.

انتقام قاسى وسريع، ولكنه عادل فى ظل الحرب والاحتلال.

لم تكن كل السلع متوافرة فى المدينة، ولكن الحد الأدنى كان موجودا، وإذا اردنا تحديدا لاسباب هذه الظاهرة فهى تكمن فى أن اللجنة وحدها لم تكن هى السبب. وإنما ايضا يقظة جهاز الدولة فى المناطق المتاخمة لبورسعيد، وحيلولتها دون تسريب الصفيليين للاستفادة من المأساة، فالعناصر الطفيلية لا يمكن أن توجد إلا بمباركة من جهاز الدولة الذى يحولونه لصالحهم، أما فى هذه الفترة فهذه العناصر كانت ترتعد فرقا رغم الآمال التى كانوا يعلقونها على عودة الانجليز.

كان بعضهم يراهن على انتصار الانجليز، واسقاط عبد الناصر، بل بعضهم يقسم أنه فى أول جولة سيقدم كل التسهيلات للانجليز «نار الانجليز، ولا جنة عبد الناصر» ولقد احسن عبد الناصر صنعا بأن وضع معظم قيادات هذه العناصر فى المعتقلات ممن ثبت عليهم التواطؤ مع الانجليز.

وإذا كانت لجنة التموين قد نجحت فى عملها، فإن لجنة المحافظة على الأمن – أمن المواطن– قد نجحت هى الاخرى. إذ كانت باستمرار تحذر من الاعتداء على الأرو ح أو الممتلكات، وتدعو إلى الوقوف ضد أى فتنة تستغل ضد الأجانب، بل وتبذل قصارى جهدها فى التعاون مع البقية الباقية من رجال الشرطة فى المدينة وتنشر مجلة الانتصار بياناتها مؤكدة ذلك، إذ تقول:

«لقد تعودنا من اعدائنا الاستعماريين، أنهم حيث يفشلون فى العدوان المباشر على سيدتنا، أن يحاولوا تحقيق اغراضهم بأحط الوسائل والأساليب ولذلك وجب علينا، وعلينا نحن ابناء

بورسعيد على وجه الخصوص، أن نتكاتف لسد أى ثغرة يحاول العدو أن ينفذ منها.

- علينا أن نحافظ على الأمن فى مدينتنا متعاونين مع قوات الأمن.
- علينا أن نمنع أى اعتداء على الارواح أو الممتلكات.
- علينا أن نحبط أى مؤامرة لاشعال فتنة داخلية ضد الاجانب.
- علينا أن نقطع دابر أى مؤامرة ترمى إلى بث البغضاء بين الحكومة والشعب. أو بين البوليس والاهالى أو بين الجيش وسائر المواطنين.

إن كل الانتصارات التى حققناها لم تتم جزافا، وانما تمت لأننا خضنا المعركة متحدين، وإن المحافظة على ما احرزناه من مكاسب، يحتم أن تستمر هذه الوحدة.. هكذا تعلمنا من خبرة معركتنا الدامية، هكذا تعلمنا من خبرة سائر الشعوب التى انتصرت فى معركة الحرية.

إن الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية تكونت فى خضم المعركة، وشاركت فيها ببسالة وشرف، وساهمت بجدارة فى تحقيق الانتصار. وأن استمرار جبهتنا المتحدة فى كفاحها، واستمرار تدعيمها هو الضمان الأول لتحقيق انتصارات جديدة ولتخطى كل ما يعترضنا من عقبات.

إن طريقنا طويل، وعدونا غادر متربص، وأن صمام الأمان الوحيد هو أننا جميعا الشعب والحكومة والجيش نلتف حول أهدافنا التى لن نحيد عنها. وحول القائد جمال عبد الناصر، رمز مقاومتنا الشعبية الظافرة».

كان ذلك باستمرار هو موقف الجبهة فى معركة بورسعيد ، بقيادة الشيوعيين، لم تفقد ولو لحظة واحدة حرصها على توحيد الجميع، وحشد كل الامكانات، وابراز جمال عبد الناصر كرمز للمقاومة، وذلك رغم ما كان البعض يثير من خلافات مفتعلة، ولكن بالصبر وضبط الاعصاب، استطعنا ترويض هذه العناصر، حتى مضى الجميع فى صف واحد خلف الجبهة المتحدة للمقاومة الشعبية.

لم يكن نشاطنا قاصرا على التموين، وتأمين المواطنين، ومحاربة كل أنواع الفتن والمؤامرات، وانما امتد إلى محاربة الروح الانهزامية ومحاصرة دعاة الاستسلام، عن طريق التحريض والدعاية وتعبئة الجماهير، ومعرفة خطط العدو، بل والدخول إلى معسكراته، وحرمانه من بعض قواته، إما بالقتل أو بدفعهم على الهرب من صفوفه.

إن المأساة الحقيقية التى يعيشها أى شعب هى أن يشعر كل فرد فيه أنه يعيش مأساته بمفرده، وأن يفقد انتماءه إلى المجموع، وأنه بمفرده عليه أن يواجه عدوا باطشا منظما مدججا بالقوة والسلاح، وأن يصل إلى مرحلة ما يمكن أن يسمى بفقدان الاحساس أو المساهمة فى الرأى العام.

ذلك هو ما نجح فيه المعتدون، وساعدهم على ذلك بقايا جزء السلطة المستسلم المنهار.

بدأنا الاتصال ببقايا التشكيلات، التى كانت قائمة قبل العدوان.. لجان نقابية لجان طلبه.. نوادى تمثل النوبيين والسودانيين واليونانيين. كان الاتصال بهم لا يتوقف ليلا ونهارا حتى نجحنا فى استعادة بعضهم إلى المعركة.. وبعد أن ايقنا أننا وصلنا إلى تجميع بقايا هذه الهيئات، تم الاتفاق على أن تقوم بمظاهرة فى المدينة المحتلة ليشعر العدو أن الشعب موجود فى المقاومة، ولتشعر الجماهير بقوتها، وأن ما بقى فى المدينة من سكان قادر على المقاومة بل وانزال الهزيمة بالعدو.

وكان الموعد الذى حددناه هو يوم الجمعة فى جامع الرحمة، عقب الصلاة وأعلنت الجبهة عن موعد المظاهرة ووزعت البيان التالى:

نداء من جبهة المقاومة الشعبية

المتحدة ببورسعيد

أيها الشعب المناضل..

مهما تجمعت قوى البغى ضدنا، فالنصر حتما فى جانبنا، إننا إلى جانب الحق، ونقاتل من أجل قضيتنا العادلة.. إن الرأى العالمى كله فى جانبنا، الاتحاد السوفيتى.. الصين الشعبية.. الهند.. وكل الدول العربية.. حتى الشعوب فى انجلترا وفرنسا تعارض حكوماتها المجرمة.

أيها الشعب المناضل..

لقد ضحيت وكافحت، وكان قرار الانسحاب ثمرة نضالك وكفاحك العتيد المتواصل.

ايها المواطنون..

فلتسر هذه الجنازة الصامتة، التى ستخرج عقب صلاة الجمعة مباشرة فى هدوء ونظام. لتكون تعبيرا صادقا عما نكنه لشهدائنا الابطال، وليعلم المستعمر أن شعب بورسعيد البطل لن يهدأ أبدا، ولن ينحنى أمام الطغاه.

تحيا ذكرى شهدائنا الأبرار يسقط الاستعمار عدو الشعوب
عاشت وحدة الشعب والحكومة والجيش تسقط اسرائيل اداة الاستعمار
جبهة المقاومة الشعبية المتحدة ببورسعيد

قام الرفاق من اعضاء الجبهة بتوزيع المنشور قبل الموعد المحدد بأيام أذكر منهم أحمد حجازى، ابراهيم هاجوج، منير موافى، الشيخ عبد السلام الخشان، وغيرهم ووزعت المنشورات على المنازل باليد وعلى المحلات التجارية.. على بقايا رجال البوليس وعلى بقايا الجيش.

وفى اليوم المحدد كانت المفاجأة أن بقايا أجهزة السلطة التى سبق أن استسلمت للعدو، جذبت إلى صفها بقايا "هيئة التحرير" (هاتاشاما).. وأنشأت هيئتين وهميتين أخرتين وأصدرت المنشور التالى، داعيا إلى السكون والاستسلام.

بالاشارة إلى المنشور الموزع اليوم للقيام بمظاهرة احتجاجا على الاعتقالات، التى قامت بها قوات الاعداء التعسفية، وبناء على رغبة السيد محافظ القنال بمنع التظاهر، حرصا على صالح المدينة فى هذه الظروف العصيبة، وبعد الاتصالات بالمسئولين بخصوص الافراج عن المعتقلين، فقد الغيت مظاهرة اليوم وليطمئن كل مواطن على المعتقلين، فسوف يفرج عنهم فى أقرب وقت، حيث أنه تجرى مفاوضات مهمة بشأنهم.

المقاومة المسلحة

هاتاشاما

الهيئة التنفيذية للاتحاد

لقد أحسسنا ببداية التخريب، المستسلمون يحاولون أن يعيدوا العجلة إلى الوراء ورغم ذلك تجمع حشد كبير لا بأس به من أبناء بورسعيد حول جامع الرحمة وما أن شعر محافظ المدينة بذلك، حتى حضر إلى المسجد، ودفع بأحد رجال الدين ليعتلى المنبر، ليوجه نصيحته إلى المواطنين بعدم تعريض أنفسهم للهلاك وقرأ بصوت منغم متهدج الآية الكريمة "ولا تلقوا بأنفسكم الى التهلكة".

وما أن ألقى خطبته حتى ارتفع الهتاف أمام المسجد بسقوط الاستعمار وبحياة ناصر.. وتقدم المحافظ ليرهب المشتركين، ولكنه فوجئ بشاب من بورسعيد, يلقيه أرضا

ويدوس عليه بالحذاء وهو يهتف بسقوط الخونة والمستسلمين ذلك الشاب هو الرفيق "ابراهيم هاجوج" عضو حزبنا.

مرت لحظة تردد وصراع بين طليعة المظاهرة، وعناصر الفتنة والاستسلام وفى الحال تقدمت سيدة من بين الصفوف، لا يعرف احدا لها اسما أو عنوانا.. سيدة فارعة الطول، وجذبت العلم ورفعته وتقدمت الصفوف فى وسط حشود الانجليز وهى تهتف الثأر الثأر.

يسقط الاستعمار دماء ابناءنا لن تروح هدرا.

لقد انفجر البركان، وجن جنون الناس وهم يهتفون.. العشرات والمئات يندفعون من الشوارع الجانبية، المظاهرة تسير كالنهر الهادر بلا نظام، عشرات اللافتات ترتفع فى السماء، تحمل اسماء هيئات تصور الناس أنها ماتت أو أنها لم تعد موجودة.

مضى النهر الهادر من مسجد الرحمة.. فى شارع صفية زغلول .. فى طريق المقابر.. لقد أحس الانجليز أن الجماهير شىء ضخم، لم تكن قوتهم قد أعدت العدة لمقابلته. آلاف الطفال يحرسون المظاهرة.. أكاليل الزهور تتقدم المظاهرة.. الميكرفون يذيع الاناشيد الوطنية.

تحت علمنا الحر الاخضر راح تمشى الملايين

حس الانجليز بدقة تنظيم المظاهرة، وضخامة الحشد بحيث يصعب أن يقال أنه بقى فى منازل بورسعيد شخص لم يشارك فى المعركة أمهات أباء أطفال رجال نساء بورسعيد بأكملها.

الانجليز يحسون ضخامة الحشد. يقفون بمدرعاتهم على اطراف المظاهرة، المظاهرة تمشى فى طريقها المرسوم، حيث تعقد مؤتمرها فى المقابر، حيث الشهداء.. وحيث الجثث لاتزال حية.

يسرع الانجليز لايقاف هذا السيل، يرسلون بطائراتهم لتحلق قريبا من رؤوس المؤتمرين فى المقابر، الناس لا يتحركون.

السؤال الذى يقفز إلى ذهنى فى الحال ماذا علينا أن نفعله الآن، انها اللحظة الحاسمة.

جماهير مصرة على القتال.. مدرعات مصوبة ببنادقها ومدافعها نحوها، طائرات تكاد تلامس الرؤوس.. أبواب المقابر مفتوحة وتظهر منها الجثث.

ولم أجد بدا من أن أصعد فوق أحد المقابر لأخاطب الجماهير باسم الجبهة ولنعلن اصرارنا على الكفاح. ورفض الهزيمة ولنقسم سويا أمام شهدائنا على المواصلة.

الأم تقسم أمام قبر ابنها الشهيد

الاب يقسم أمام قبر ابنه الشهيد

الزوجة تقسم أمام قبر زوجها

الزوج يقسم أمام قبر زوجته

الصديق يقسم أمام قبر صديقه

الابن أمام قبر أمه وأبيه

كان القسم يمضى، وكأنه رصاص مصوب إلى العدو. الانجليز تأخذهم الدهشة.. الشباب يعود إلى البلد المهزوم.. لقد تم القسَم وبدأ على الفور فى نفس المساء تحطيم قرار حظر التجول.

فى الواحات

الرمال الصفراء تمتد بعيدا إلى ما لا نهاية، فى موجات صفراء كلها تتشابه فى خطوطها وانكساراتها والشمس تنعكس اشعتها على هذه الرمال فى دوائر صفراء تتسع وتضيق، ولكنها لا تلبث فى النهاية أن تجبرك على أن تغلق عينيك مللا وبلادة.

وعلى هذه الرمال وتحت اشعة الشمس يجلس طابور طويل من العراة تحيط بهم خيول يمتطيها عدد من الضباط ومعهم عدد من الجنود، وبعيدا بعيدا يجلس عددا من القناصة على مدافعهم وبنادقهم المصوبة إلى هذا الطابور من المعتقلين. مثقفون، محامون، اطباء وقادة نقابيين، قيادات بارزة من العمال والفلاحين، ومعظمهم ممن خاضوا المعارك الوطنية فى مواجهة الملكية والاقطاع واسقطوا مشروع صدقى بيفن. وبعضهم ممن حمل السلاح فى معارك القنال فى عامى ٥١ و٥٦.

وفى مواجهة هذا الطابور تقوم استراحة بسيطة جميلة يجلس عليها مجموعة من الضباط، يتوسطهم ضابط صغير الحجم، شركسى السحنة، انفه مثل المنقار يضع عليها نظارة معدنية، ويمسك بيده منشة صغيرة يحركها بشكل انثوى، ويحاول بين لحظة وأخرى أن يشد جسده حتى لا يتلاشى فى وسط اجساد الضباط الفارهة، ليؤكد رجولته التى

جرحتها شائعات كثيرة حول اسباب طرده من القوات المسلحة.. ومن حين إلى آخر تدور عليهم اكواب من المثلجات، وترتفع بعض الضحكات.. واحس مع هذه المرطبات ان العطش يكاد يزهق روحى، مع بقايا الدم التى تسيل من فمى.

ويخيم على الطابور صمت حزين، واحس بمرارة تملأ فمى، ورغبة شديدة فى القىء.. ولكن شغلنى عن كل ذلك هذه الدماء التى تتدفق بغزارة من ذلك الجسد الملقى على الارض والذى يضع رأسه على رجلى، والذى لا تربطه بالحياة سوى هذه الآهات المكتومة التى ترتفع من صدره بين لحظة وأخرى. وأمد يدى امسك ذراعه التى لا تربطه بجسده سوى جلده رقيقة، بعد ان حطمت العصى الغليظة عظامها وبرزت من بين اللحم والجلد.. أننى امسكها بيدى وكأننى احتضن عزيزا سيوارى التراب بعد قليل.

ينزل همت من على المنصة، ويدور على صفوف المعتقلين العراة، يتحسس اجسادهم، ويتأمل كافة اعضائهم، ويتوقف أمام بعضهم يتأملهم بصورة تبعث الحمرة فى وجوه الضباط.. وبعد هذا الاستعراض الغريب يعود إلى المنصة من جديد..

ومن خلال هذا الصمت، وبعد بعض الضحكات الناعمة يرتفع صوته وهو يستفسر فى خشونة انثوية، هل الدكتور موجود؟ العروسة موجودة؟ شاويش الجلد موجود؟

ويرد عليه احد الضباط فى صوت مكتوم.. كل شىء موجود يافندم.. ويمط رئيسهم الشركسى جسده النحيل، وبصوت يتصنع فيه الهدوء والتعالى يصدر أوامره.. فين الدكتور عليش.. وينصب فجأة شخص اسمر الوجه سمرة تميل إلى الخضرة، مكور الجسد، قصير القامة، مقوس الساقين، وعلى وجهه ذعر دائم وفى يده حقيبة صغيرة ويرد بصوت مرتعش.. موجود يا أفندم.

اكشف على المصابين اولا قبل الجلد.. حتى تتم الاجراءات بشكلها القانونى السليم.. على فكرة يا عليش، الولد اللى اسمه جمال غالى ده ذراعة بايظة خالص ممكن تقطعها وتريحه من العذاب.

واحس بنفسى احتضن جمال وترتفع الاصوات من هذا الطابور المخضب بالدم.. لا .. لا .. لا.

ويتقدم عليش فى خطى رتيبة نحو جمال وصفرة باهتة تعلو وجهه، ورعشة سريعة حول فمه، ولكنه ما يكاد يسمع الاصوات حتى يتوقف فى منتصف الطريق وكأنه اصيب بالشلل.

ويسود صمت قاتل رهيب ويتوقف السجانة فجأة عن الضرب وتتحول الانظار إلى

شخص انيق يرتدى بدلة كاملة، طويل رقيق يصرخ بأعلى صوته.. مش ممكن ده يتم، اعطونى المريض، لن اسمح بقطع ذراعه، ابتعد يا عليش من طريقى، انتم مجرمون، قتلة، خلاص لا استطيع الصمت، كفاية.. كفاية.. سنتين نسيت فيهم الطب، تحولت الى جلاد، تعذبون وتبطشون وتقتلون.. وتزورون شهادات طبية، انهم ماتوا بالمرض، سامع يا عليش. سامع يا همت، المأساة لن تستمر، لن نقطع ذراع المصاب.. ويتقدم بخطى واثقة ويحتضن جمال.. اعطوه لى، انه مريضى، لن نقطع ذراعه، انا حالف اليمين يا ظلمة.. ويقفز فجأة ويحتضن جمال.. اعطوه لى لن نقطع ذراعه أنا حالف اليمين.

ينظر الضابط الشركسى الى زملائه ويتحول وجهه الى قطعة من القماش الابيض ويتمتم بصوت مسموع.. ما هذا يا دكتور عليش ألست كبير الاطباء.. وتتعثر الكلمات على شفتى عليش، وتخرج منه اصوات غير مفهومة وغير مسموعة، ويرد الدكتور الشاب فى ثورة عارمة وفى كلمات مختلطة. دا مش دكتور، دا جزار، انا شاهد على كل حاجة، انا لازم ابلغ النقابة... ويتلعثم الضابط الشركسى وتصدر عنه كلمات لا يفهم منها غير.. يظهر ان الدكتور فؤاد متعاون مع الخونة، وتأتى المفاجأة الاخرى من جمال .. ذلك الذى كان الى لحظة قصيرة ممددا على الارض من كثرة الدماء االتى نزفت منه، فينتصب واقفا اصفر الوجه، وعظام ذراعه بارزة من اللحم، وشعره ملبد بالدم، وذراعه تهتز فى حركة لا علاقة لها بجسده، اذ لم يعد يربطه بجمال سوى جلده رقيقة، ويأتى صوت جمال عاليا.. احنا مش خونة يا همت، احنا وطنيين، احنا اللى عملنا معارك كوبرى عباس، احنا الفدائيين بتوع القنال، احنا الشعب، احنا اللى هاجمنا الملك اللى انت كنت خدام له انت وامثالك، ويتقدم الدكتور فؤاد ويندفع نحو جمال ويحتضنه، ذراعك لن تقطع يا جمال، انت مريض، انا دكتورك، ويرتبك الضباط، ويضطر السجانة ويخفضون فى خجل عصيهم التى كانت منذ لحظة قصيرة ترتفع وتهبط على رؤوس المعتقلين، تفجر الدماء من الرؤوس الحليقة.. ويهمس ضابط كبير، منتفخ الوجه، ذو كرش كبير كان مديرا فى تلك الفترة لليمان ابى زعبل الذى يتبعه سجن الاوردى، كنا نعرفه جيدا، رجل طيب القلب، ضعيف الشخصية فى مواجهة رؤسائه، ربما كانت حياته الخاصة العائلية فيها الكثير من اللمسات الانسانية، ولكنه بحكم السن والمهنة اصبح اسير لقمة الخبز، ثم يرتفع صوته مرطبا الجو.. انت أخذتها جد قوى يا دكتور فؤاد، خد المريض بتاعك يا سيدى، والبيه موافق.

ويحتضن الدكتور فؤاد جمال ويمضى به بعيدا فى اتجاه مستشفى السجن لذى يبعد حوالى ٢ كيلو بين الرمال والصخور.. ويسال عن السيارة لنقله مع المريض ولكن يرد همت.. كفاية كده انت عاوز تركب الشيوعيين سيارات كمان. دا غيرنا بيحرقهم بالنار.. ويمضى الدكتور وأقدامه تغوص فى الرمل محتضنا جمال الذى لا يقوى على السير.

وتتبعهم انظار المعتقلين حتى يبتعدوا فى جوف الصحراء ويتحولوا إلى نقطة حمراء... ولكن رغم اختفائهم تظل هذه النقطة الحمراء تتسع وتتسع حتى أراها بحيرة واسعة تحتوى الصحراء، واتحسس رأسى فأجدها ايضا نقطة حمراء من الدماء..وانظر على من امامى من الرفاق فأجد كلا منهم ايضا نقطة حمراء من الدماء.

وتعلو همهمات بين السجانة، وتنخفض عصيهم، ويشعر الضباط على المنصة ان النظام الذى وضعوه لمجزرة اليوم، قد ينفرط عقده، وخاصة بعد أن ارتفع صوت سجان عجوز، وهو بين البكاء والصراخ.. وحد الله انت وهو.. وحد الله انت وهو .. لقد انفرط عقد النظام، وتحولت وجوه السجانة الى زميلهم الذى اوشك ان تعاوده موجة التصوف والخوف من الآخرة.

وهنا ينطلق صوت البروجى عاليا فى الصحراء، كبومة تنعق فى الخراب، يتبعها صوت همت.. ابدأ الجلد يا شاويش ريحان ١٦ جلدة.

ويبدأ نداء الاسماء "شحاته عبد الحليم"، ويقف شحاتة بجسمه الاسمر الطويل العريض، يقف سائق الترام كصخرة جامدة، ويتردد السجانة امامه ثم يهجمون عليه، ولكنه يرد بصوت هادئ.. لا داعى لهذا كله.. ويتقدم إلى العروسة، ويضع رأسه فى الفاتحة المعدة لذلك وتقيد اقدامه ويداه إلى العروسة.. ويبدأ الجلد.

ويرتفع الصوت من جديد....

"ابراهيم عبد الحليم، اسماعيل المهدى" وتهوى الكرابيج على الاجساد وتنفجر الدماء، ويصبح همت فى حنق، الجلد مش كده يا شاويش ريحان.. ايدك طرية، انا عاوزه يتأوه ويتلوى زى المرة.. ويقول انا فعرضك يا جمال عبد الناصر.

ولكن يفاجأ همت أنه لا يسمع الاصوات المطلوبة.

وينادى من جديد على اسمى..

أحمد الرفاعى.. وضبه يا شاويش الواد بتاع السجن الحربى، عاوزه يعرف أن الحكومة عندها حديد ونار ورجاله.. عد ١، ٢، ..... ١٦ العد غلط يا شاويش، ارجع من الاول.

وتستمر هذه المجزرة حتى يتم جلد ٦٠ معتقلا. عراة كما ولدتهم امهاتهم، اجسامهم ملطخة بالدم مضربون عن الطعام، لم يتناولوا الطعام من ستة عشر يوما. وتأتى الخيول الجامحة تعدو من بعيد مجنونة بضباطها وتدوس صفوف المعتقلين المجلودين الجائعين المربوطين فى السلاسل، وتنطلق بعض الرصاصات فى الهواء.

ويعود الهدوء من جديد ويبدأ همت الحديث.. الجلد انتهى يا شاويش، وضب المحضر يا حضرة الضابط، وتمم كل الاجراءات القانونية.. ثم يرتفع صوته من جديد منذرا مهددا وهو منفوخ الصدر واقفا على اطراف اصابعه.

مافيش جرايد.. مافيش ديمقراطية..

مافيش زيارات.. مافيش كفاح مسلح.

مافيش حريات.. مافيش تنظيمات لا سرى ولا علنى

مطالبكم مرفوضة.. مافيش الا فك الاضراب او تموتوا زى الكلاب، انتم قاعدين فى لوكاندة يا كلاب، انتم فاكرين انكم حتخرجوا.. انتم غلطانين.

ويرفع أحد الرفاق يده ليرد، فتنهال العصى على رأسه حتى يغمى عليه.

ويرتفع صوت همت.. التشريفة انتهت. ارميهم فى التأديب.

إلى ليمان ابو زعبل

برزت فجأة من الصحراء سيارات كبيرة ذات لون أجرب، ومغطاه بقماش باهت سميك، ووقفت على بعد امتار من طابور المسجونين المربوطين جميعا فى سلستين طويلتين، ويتحرك الرجال فى اتجاه السيارة، وهم لا يقوون على المسير...وينظر السجانون اليهم فى حيرة، ويرتفع صوت همت.. ايه ده يا سجان انت وهو، انتم تعبتم ولا ايه. الظاهر انكم مش نافعين، كمل التشريفة أنت وهوه وحرس سلاح للمعتقلين..

ومع صعود المعتقلين إلى السيارات ينهال الشوم من جديد , فالسيارات مرتفعة، ومرت ستة عشر يوما على الاضراب ولم يتناول واحد من المعتقلين لقمة خبز واحدة، لا

يستيطعون الصعود فتنهال الشوم عليهم، ثم يتقدم بعض السجانين ليقذفوا بهم إلى السيارات.. ولكن السلسلة الغليظة التى تربط كل مجموعة من المعتقلين تحول دون السرعة المطلوبة، وتلتف بقسوة على يد بعض الذين صعدوا السيارة مع شد الذين لازالوا فى جوف الصحراء، واسمع الانات، حاسب حاسب، ايدى راح تنكسر.

وتستمر عملية شحن الرجال العراه، المرضى الجياع، الذين كانوا الى وقت قصير يعيشون الحياة بكل ما فيها من امل واصرار رغم الجوع والمعتقل وبعد الاسرة و لاولاد .. كانوا إلى عهد قريب وفى وقت الجوع يغنون الحان سيد درويش وبول روبسون، ويصدرون مجلة السجن، ويتناولون صور اطفالهم، ويرسلون بياناتهم إلى الحكومة معبرة عن ارائهم بشجاعة، مطالبين بعودة الديمقراطية، وحق الفلاحين والطبقة العاملة فى تنظيمات تعبر عن مشاكلهم وارائهم.

ومن بين طابور العراة تقع عينى على "فتحى عبد الرحمن" المدرس الصعيدى الذى لم تغير الثقافة أو التعليم شيئا من عاداته أو لهجته الصعيدية.. اسمر ممتلئ الجسم، قصير القامة خفيف الروح والظل، لا يمل رواية القصص والذكريات. ومع كل مرة يحكى تزداد حلاوة وخفة دم.. اراه فى هذا الطابوروهو يصرخ من ألم السلسلة التى التفت حول رقبته، انه صوت فتحى الذى لا اخطئه، وتكون المفاجأة انه الوحيد الذى يرتدى فانلة، فالكل عراة.. من الواضح انها ليست فانلته فهى طويلة تصل إلى قدميه.. انه يصر أن يكون انيقا حتى فى احلك الاوقات، ولا ادرى لماذا اجتاحتنى موجة من الضحك!! ومع العصى التى تنهال ظهرى وكتفى، كان الضحك يكاد يخنقنى. وفى وسط هذا الجحيم يلتفت الى فتحى مستفسرا مؤنبا.. بتضحك على ايه يا ابن..... دا وقته. ويسرع الصول فيعدل من وضع السلسلة حتى لا تكسر رقبته، ويحاولون أن يجردوه من الفانلة، ولكنه يرفض.. عيب يا شاويش، ما يصحش أنا راجل صعيدى .. ولكن العساكر لا يستطيعون ان يجردوه من الفانلة لأن معنى ذلك أن يفكوا السلسلة كلها.

وتمضى السيارات تترنح بحملها الثقيل حتى تصل الى الليمان، ويستقبلنا صفين من الجنود ولكن المفاجأة أنهم لا يستخدمون العصى والكرابيج.. لقد اطمأنوا لرحيل همت المرتبط بالمخابرات والمباحث، واصبحت السلطة فى يد ضباط السجون العاديين، ويلقون بنا فى الزنازين، فى شبه زنازين.. كل زنزانة بها عشر رجال.. لا تكفى لتمديد اجسادهم.

وتغلق الزنازين، وينظر المعتقلون الى بعضهم وترتفع اصوات متضاربة، ضحك وبكاء.. والبعض يضم الآخر إلى صدره، واحاول ان اسرى عن شاب صغير.. معلش بعد شوية الألم سيزول يا قناوى.. شاب صغير فى الثانوية العامة، مرفه فى حياته ، تفتحت عنياه وهو صغير فعرف الكثير.. ممزق الظهر..آخذه فى حضنى ولا أكاد أمسح على ظهره حتى يصرخ فى شدة الالم، وأشم رائحة الجوع تتصاعد من فمه ويتناهى إلى صوت اسماعيل معيد الفلسفة بالجامعة وكأنه اسلاك من الصلب، اتركه يا زميل عليه أن يتحمل ولا ولادة بلا ألم. كلمات صادقة ولكنها قاسية، فللبشر طاقة.. وأحس بالاضطراب وأضع رأسه على ساقى ويتمدد على ظهره ليشعر برطوبة الأرض علها تخفف حجم الالم الملتهب فى ظهره.

ومع اغلاق الابواب وحلول الظلام تبدأ تشعر بالاطمئنان، فمعنى التمام فى السجن انك فى مأمن حتى الصباح ولكن المفاجأة أن التأديب يفتح بعد ساعة ويظهر "انور السروجى"، سجان ضخم الجسم، يتصور دائما ان هذه الضخامة تجعله فى مستوى اعلى من زملائه السجانين، وكفيلة بأن تضعه فى مستوى الضباط، وينادى على بعض الاسماء من المعتقلين، وما أن يخرجوا من الزنازين حتى ينهال عليهم ضربا ويطلب إليهم أن يشربوا من جرادل البول.. ولكنهم يرفضون، ويحاولون اقناعه بأن ذلك لن يفيده فى شىء ولكنه يصر.. وتظل هذه المهزلة مستمرة حتى يشعر بالتعب فينصرف متوعدا بأن ذلك لابد وان يتحقق فى الصباح.

ومن الغريب أننا اكتشفنا بعد فترة اننا ظللنا نشرب البول لمدة عشرين يوما دون أن ندرى.. اذ كنا نملأ الجرادل من بئر فى التأديب تختلط مياهها بمياه المراحيض.. ولم نندم على ذلك اذ اننا كثيرا ما تمنينا بعد ذلك نقطة ماء واحدة حتى ولو كانت بولا خالصا حينما حددوا كمية المياه التى تصرف لكل مجموعة من المعتقلين، حيث تقوم ادارة السجن فى كل مساء بقطع المياه عن العنابر.

عشرون يوما فى تأديب ليمان ابى زعبل، دعمت الصداقة بيننا وبين المسجونين العاديين، رغم الحراسة المشددة، وتضافرت عواطفهم معنا احتجاجا على عمليات التعذيب الوحشية التى انزلت بالمعتقلين، واعجابا باصرار المعتقلين عى مواقفهم.

فالموقف القوى يبعث الدفء والقوة فى محيطه، اما الضعف فلا يثير غير الاشمئزاز.. وكانت هديتهم لنا قلم ومجموعة من الاوراق.